ضجعة التورس

حقوق الطبع محفوظة

١٤١٢هـ - ١٩٩١م

٨ع٣ر٩

سحر سحر ملص.

ضجعة النورس/ سحر ملص - عمان: (د. ن)، ١٩٩٠

(١١٢) ص.

ر. أ (٤٤٠/ ٧/ ١٩٩٠)

١. القصة العربية أ - العنوان

(تمت الفهرسة بمعرفة دائرة المكتبات والوثائق الوطنية)

بناية الددو
مقابل البنك العربي - العبدلي
عمان - الأردن

دار البشير
للنشر والتوزيع

هاتف {٦٧٠٢٣٠} - {٦٦٤٤٢١}
ص. ب {١٨٣٩٨٢} - {١٨٢٠٧٧}
تلكس ٢٣٧٠٨ / بشير

Tel (670230) (664421)
P. O. Box (183982) (182077)
Telex 23708 Basha

Dar - Albashir
For Publishing & Distribution

Al Dado Building
Opposite of Arab Bank
Amman - Jordan

ضجعة النورس

مجموعة قصصية

سحر ملص

دار البشير
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

أبي . .

إليك ولذكرى دروب متشابكة سرناها متعاكسين في متاهات الحياة بحثاً عن خلاص . . حتى إذا التقينا كان الفراق . .

٦/١٠/١٩٨٩م

سحر

الطائر الأثير

الشمس تلهب الطرقات.. تحرق الأشياء عابثة بكل ما حولها، أقف مع الواقفين تلفحنا حرارة الأرض بانتظار الفرج بعد ليل طويل، لحظات وأحصل على الجواب، وتنتهي القضية والمراجعات والجو الخانق والسير في الممرات والأقبية المعتمة.. وصوت الصمت، آه يا آلهة الصمت كم نزفت على بوابتك وتجرحت وكنت مثل قطة مقطوعة الذيل ملتهبة.

أمي لن أرجع اليوم إليك كاسفة مثل كأس ماء منسفح، ثم أهتف: لم أجد عملاً.. ولن أسرع إلى أوراق أيامي الرتيبة أنتزع واحدة أضيفها إلى أكداس الأيام التي عشتها عاطلة عن العمل، معنى ذلك زيادة يوم آخر لأيامي التي تمضي بلا معنى.. ونظرات الدائن الوقحة التي تطل يومياً عليك تطالب بما بقي له من دين دراستي لن تصفعك بعد الآن.. ولن يُطِلَّ بلفتات مريبة يشحذ فيها نظرات مختلسة إلى أجزاء من جسدك علها تُسكت جوعه ووقاحته، وحفيف ثوبك الذي يغسل درب الشمس قبل طلوعها، وطبق القش الذي تحملينه على رأسك منذ الصباح وحتى المساء

تبيعين النعنـاع والزيتون لبلدة بلا زيتون، وفي أحسن الأحوال تحملين ريش الطاووس في الطرقات، والطفلة التي كانت تنبض في أحشائك حيث صلوات السكون والصمت تحت سليط اللهب أقسمت ألّا تكون بائعة خضار مثلك، وكنت في رحمك أتخبط في بحـر لُجّي، فأعـطي أنيني وتسبيحي، ولو كان للجنين أن يسجل ما حوله لسجّلت عمر الشقاء وطيور الشوك التي ترف في الـدرب لتستحيل في خيالـك إلى ملائكـة الحلم التي تحمل الفرح، وتغرس الأرض محولة المدينة إلى غابة جميلة، آه ما زالت وجوه الناس تحاصرني مثل قطط جرباء تحاصرني وتموء. . وأعماقي تعـوي بعـواء الصمت، وأنا التي تسلقت درجات معابد الصبر واحـدة فأخرى. . وأقول ستصفق لي المدينة، وسأمد يدي مع الأيدي المتشـابكة لنصنع حلمنا ومدينتنا. . ونرقص فرحاً على مزامير الطقوس، نحرق الجهل على مذبح الأميّة فتنبت غيمة ماطرة.

في الصبـاح كعـادتي فتحت الجـريدة أبحث عن إعـلان عمل، أو عن خبر جديد لعله يبث الفرح في أعماقي، أو يحرك أعماق المدينة الميتة، إذ منذ زمن وأنا أتسابق مع زميلاتي في البحث عن جديد في الصحف التي لا تحوي إلّا الأخبار نفسها: احتـراق بيروت. . نزف الضفـة. . اعتقـالات. . ارتفـاع سعر الـدولار. . غلاء الأسعار. وعلى الجانب الآخر إعلانات مقيتة

لعالم ليس لنا: سيارات فارهة.. أسرّة مريحة للولادة.. مطابخ أميريكية.. حفلة طرب للراقصة المغناج صاحبة الصون والعفاف في فندق النواعم، والعطر الفرنسي إنتاج الشركة التي غنت للثورة الفرنسية، وشقق سوبر ديلوكس.. الخ. تذكرت حين كنت أصحو ليلاً وأنا أفترش الأرض لأجد الكل نائماً إلّا أخي يقلب الصحف بحثاً عن إعلان عمل يكون له مخرجاً، وكنت ما أزال صغيرة لا أفهم معنى تقليب الصحف والجرائد وصوت قرقعتها وخشخشتها الذي يعطي حفيفاً يوقظني ويؤرقني.. وكنت أصلي في سري لإلهي، وأتمنى لو أصير مدينة الحلم فأمنحه عملاً. حتى ضاقت به المدينة وهرب مع الهاربين والتحق في جنوب لبنان واختفى.

آه ثمة إنسان يلكزني، وموظف المكتب الذي بدأ يصرخ بالناس وكأنهم مخلوقات طفيلية عدّل ربطة عنقه وخفض صوته حين تقدمت سيارة سوداء فارهة خرجت منها سيدة جميلة فاحت رائحة عطرها قبل وقوف السيارة تماماً، ولتنورتها المشقوقة جرح فاضح يعري جسدها، وأقسمت بيني وبين نفسي أن أمورها ستُسوَّى ولن تقف مع طابور المنتظرين.. آه لو كان لأمي فخذين جميلتين، وما نبت شوك الطريق بكعبيها.. لكن لا.. هذه المرة سأرجع فرحة مثل طيرة حقل، وستزغرد أمي، وتطل الجارة بعينيها حانقة مرددة: أهو عريس جديد.. لن تفهم أبداً معنى الوظيفة،

ولن تفهم معنى أن أشارك في بناء الحياة بيد معطاءة حانية.

لو لم تعلميها وزوّجْتِهَا! بنت أبو مصطفى تعيش في عز وحياة هانئة، وزهرية السكرتيرة يوصلها مدير المكتب بنفسه لبيتها بسيارته مع أنها لم تحصل على الثانوية العامة، هل كان من الضروري الكتب والجامعة؟!

وكنت مثل فأرة كتب أبحث عن الحقيقة والسبل المؤدية لدروب الحرية، وصنع مدينة كريمة، وتقويض أسس الجهل، وتنقلت من فكر سارتر إلى كامو وسان سيمون وأفلاطون ونيتشه بحثاً عن طريقٍ لي ولغيري... الرجل الذي يقف أمامي يحدق بنظرات نصف حزينة غامضة.. لا تحدق بي يا سيدي، كلانا طائران حزينان في قفص واحد.. آه لذاك الطائر ذو الجناح الأحمر الذي اصطاده يوماً أخي وحبسه في قفص وظل لأيامٍ يكابد في صمت.. وراهن أخي على موته وحياته في عالم محصور ضيق حتى كان الفجر فإذا بالقضبان قد عصرت رقبته حتى الموت..

آه إنهم ينادون على اسمي.. أدخلُ مكتباً فارهاً نصف متعثرة.. ثمة شعارات تمجد الإنسان.. لا شك أن هذا الموظف يختلف عن غيره، ولن يسألني بمماحكة مثل من سبقوه.. وسأحصل على وظيفة.. أتطلع قلقة، يمد يده ويمسك

بملف من بين عشرات الملفات المكدسة أمامه.

ـ إذن أنتِ أميرة؟

ـ نعم.

ـ وترغبين بالعمل؟

ـ نعم.

ـ وتقسمين على الولاء والطاعة؟

ـ وأردد: سأقسم على كل الأشياء ألّا أشاكس أو أجادل، وستنام كل النظريات والفلسفات في أعماقي مجرد أن أجد رغيفاً يطعمني ويطعم أمي.

ـ يمسك بالملف.. يقلب الصورة ثم يتساءل: لكن لماذا كنت تضعين الايشارب قبل الآن؟

ـ وتمتمت: لا لم أضع إيشارباً من قبل.

ـ حدّق في الصورة، ثم تفحّصها أكثر.. وصاح: آه لست أنتِ هذه أميرة محمد؟

ـ وأردد.. أنا أميرة أحمد.. لكن إن شئت أُغير اسم الأب، وانتبهت إلى أنه لا يحسن القراءة، وراح يفتش في الملفات.. قفزت إلى عيني قصاصات التوصية المشبوكة بذلك الملف الذي كاد خطأً أن يوظفني، إذ كان هنالك نوعان من الملفات، بعضها بأوراق توصية، وأخرى عارية تصفق في وجه الزمن.

ولعله لخجله لم يرفضني فوراً، ثم أمسك من بين تلك

الملفات المكدسة بملفي، ومثل من يفاجئه صرصار بين الأوراق قلَّبَهُ ثم قال:

ـ أنتِ من خريجي جامعة فكرستان..؟

ـ نعم.

ـ آسف لا توظيف لك..

ـ لكن..

ـ آسف هذه هي التعليمات... انتهى.

خرجت حزينة كاسفة أتطلع إلى الوجوه المسحوقة التي في الانتظار.. آه لأعماقي التي تنبح بصمت.. تذكرت أستاذ الفسيولوجيا في الجامعة حين قرر أن يقطع الحبال الصوتية لكل الكلاب كي لا ينزعج الرواد إذ راحت الكلاب تنزف عواءً صامتاً. سمفونية حزينة... ملهاة علمية، وكنت أتساءل: لماذا يدخل الكلاب الحرم الجامعي.

يحملني جسدي وأرحل.. طرقات المدينة تختلط شوارعها الرمادية والسيارات الفارهة.. آه لو أركب سيارة مثل النساء المرفهات.. ثمة كلاب داخل السيارات تهز رؤوسها بجذل وتحدق بي كأنني حيوان غريب.. وجوه الناس بلا معنى لا تنم عن شيء.. يا إلهي، أين يذهبون؟ ومن أين يأتون؟.. ثمة رجل يدق بعصاه على أرض المدينة يسير على غير هدى.

وأنا أقطع الشارع وسط الزحام، سمعت زعيق فرامل سيارة كادت تدهسني، وتطلعت فزعة... هذا وجه امرأة شقراء تمضغ اللبان، وتضع النظارات، وتطلعت إليّ ضاحكة ثم هتفت: أميرة.. ما زلتِ كما أنتِ كما افترقنا من الجامعة منذ خمس سنوات، وكدت أهرب خَجِلة وأدوس على مبادئي ونظرياتي وكتبي.. وأنا أقارن بين حالي وحالها، إذ كانت أكثر فتاة تفاهةً، تنفر من جلساتنا الجادة التي كنا نناقش فيها أوضاعنا، فكان عدواها اللدودان هما مازن وخالد اللذان كانا يكتبان شعراً وطنياً.. تذكرت لحظة قالت أن أديسون مخترع لسيارات داتسون.. وروسو صاحب أشهر ماركات عطور فرنسية.

طلبت مني أن أصعد بجانبها، فتحت باب السيارة، فاحت رائحة عطرها، شاهدت جسدها الذي يشف من تحت قميص أسود اللون، ثم قالت بعنجهية: لقد توظفت في أضخم شركة، وأنا الآن على وشك الخطوبة إلى رجل أعمال ثري... كثير هم الذين تقدموا لخطبتي، لكنني رفضتهم تماماً.

لازمني الصمت.. تذكرت الخاطبة الوحيدة التي قرعت بابنا قبل سنوات، وكانت تحيط معصمها بأساور ذهبية.. جلست تتأملني وتلتهمني بنظراتها وهي تمضغ لبانها بشكل وقح.. وأنا خجلة من نفسي، إذ أية بضاعة أنا لأباع وأُشترى. كانت لا ترى

سوى القشور: قامتي.. لون بشرتي.. طولي وعرضي. وعند خروجها قالت لأمي: والله إن ابني المهندس يريد أن يخطب فتاة صغيرة ليربيها على يده، وغير متفتحة مثل بنات الجامعة.. بيضاء شقراء، ثم خرجت وصفعت الباب خلفها.

كدت ألحق بها لألعن اليوم الذي وصلت فيه البنت الجامعية لمستوى عبدة في سوق النخاسة قد تحملها امرأة بدينة دميةً لابنها، ولعنت عقول الرجال التي تبحث عن نساء كهؤلاء.. مجرد جسد.. جسد جميل ومئات الدمى يملكن أجساداً جميلة.. لكن لا ألومها، إذ لم أصادف في المدينة رجلاً يهمه حقاً عقل المرأة، لا بل إن معظم المشاكل تنبع من اصطدامه بعقلها بعد فوات الأوان، إذ من يفكر حقاً بامرأة مفكرة مثقفة.. المهم أنها امرأة تستسلم في الفراش، ليذهب ما في رأسها من علم وفكر إلى الجحيم، وحين يتزوج أحدهم من جامعية فهي لتكميل إطاره الاجتماعي أو لتعينه على الحياة العملية.

آه أمي ما زلتِ تنزين عرقاً شهياً تبتلعه حلوق الأرض المشققة.. ما زلتِ تطاردين أعماقي مثل يمامة، وأخي الذي ضاع في جنوب لبنان، ووجوه أخرى قد ضاعت.. زملائي: تيماء ومازن وخالد، تُرى إلى أين انتهوا؟ وماذا حل بنظرياتهم وأفكارهم؟ وأنا أضيع وسط الزحام. من قال إني أستطيع تغيير

واقعي الكابوسي الجاثم على صدري، لكن لا لست أنا بل نحن وهم، ما زلت أذكر حلقاتنا الساخنة في الجامعة والأحلام التي تصير طيوراً حمراء تضرب بجناحيها القفص الحديدي ثم تحلّق.. تحلّق بعيداً عن التخدير والنوم والعفن الطحلبي.. مازن وخالد كم كانا متحمسين «سأبني مدينتي.. سأصنع حياتي.. بفانوس سأشق ظلام أيامي». كان خالد يردد وكنا نسأله: هل ستفعل ذلك عن طريق الشعر؟ ويجيب بكلمات تفجر الغضب.

يا إلهي، بأي إشفاق كانوا ينظرون لهذه الفتاة، وأجد ذاتي أضيع في الزحام، ثم هتفت لها توقفي.

وأنا أهبط من السيارة لمحت في صدرها حجاباً فجر في رأسي أشياء كثيرة.. إنه حجاب لا يمكن أن تخطئه عيني.. إذن هكذا.. كل ما لديها هو من أسرار الحجب، وأنا التي رفضت كل الخزعبلات وآمنت بالعلم درباً للحقيقة.

فتحت باب السيارة وهرولت.. سأذهب إليه.. إلى (أبي محمد الفتاح).. لتحمل الأبالسة كل العلم والنظريات.. سأذهب إليه بعدما يئست.. أفتش حقيبتي أبحث عن العنوان.. إنه في وادي الحدادة.. آخذ السرفيس وأتجه إليه.. السيارة تسير تحت أشعة الشمس اللاهبة.. الركاب يتدافعون ويتمايلون

وكأننا في علبة سردين . . آه من حشرنا في مثل هذه السيارة وفي هذا المأزق . . لكن يا أميرة ما الذي دفع بك إلى مثل هذه الدروب الشائكة . لماذا استمعت إلى فلسفة سارتر وبرجسون . . وكانت . . لماذا حشوت رأسك بكل هذه الأفكار الغريبة والحياة أبسط من ذلك بكثير، مجرد أكل . . وشرب . . ونوم . . زواج . . تفريخ أولاد . . ثم موت على سرير .

آه لو بقيت مثل السلحفاة أدفن رأسي في الحياة . . منذ الغد لن أفكر بنظريات ولا في درب الأحرار . . ولا الملائكة التي تصنع مدناً جميلة . إن توظفت فعليّ بالطاعة، وإن لم أتوظف فذلك أفضل . . وإن ذهبت إلى ندوة علمية سأستمع وأصدق كل الآراء وكل ما يقال حتى وإن كانت آراءً كاذبة، ولا أجادل المثقفين وأستمع بخشوع لكل الألسنة السوداء التي تلوك سمعة الإنسان . وأهش فرحاً للأسنان التي تنهش أجساد البشر، وأبارك كل العيون المحدقة التي تتلصص على جسدي بحُسن نية، وأكسر كل أسلحتي التي نبتت من العلم والثقافة . . لكن لا . . كل ذلك لن يتم لأن الجوع الطويل يمنح الإنسان حصانةً ضد الموبقات، وأستذكر صوت جارتنا : أبو محمد الفتاح يفك السحر والطلاسم، ويكتب حجابات . عمل ثلاثمائة عملية بواسير دون أن يمس النساء أو المشرط، وراجعه ثلاثة أطباء كي يداويهم، وزاد عندهم عدد النطاف من ٣ مليون إلى ٨٠ مليون . يا الله

معنى ذلك ستخصب المدينة، والخير آت، والعمار مستمر، وقد عمل لمفيدة حجاباً بعدما تطلّقت ثلاث مرات، ثم تزوجت من رجل ذي منصب وحظ كبير. ومسؤولون كبار يراجعون بابه.. لا يخلو أبداً من الناس ووجهاء المدينة.. هذا الإنسان الذي كان شقياً ثم أتاه الكشف فجأة في الليل.. إني آتية إليك يا سيدي لتكتب لي حجاباً سحرياً لكل الأشياء.. لا لن أشعر به مثل عقرب ينام في صدري، ولن أسخر من الخرافات.. ولن أقول العلم يحرر البشر.

وادي الحدادة أيها الخراب الجميل، يا من ينام الناس فيك يصرفون الليل بإنجاب الأطفال... والسيل الذي يمر سنوياً مخترقاً صدرك، جارفاً مئات القطط، وأصص النباتات التنكية الصَّدِئة التي تصطف على الجدران المتهاوية. هأنذا قد وصلت لمبتغاي.. أهبط من السيارة وأسير في درب متعرج مثل أيامي.. تصادفني عجوز أسألها عن بيته.. تشير لي: سيري قليلاً في «الزقاق» تجدي امرأة اسمها «صفية»، اسأليها عنه. لكن الذي أعرفه أنه انتقل إلى الشميساني وصار له رقم هاتف وموعد للحجز قبل شهرين أو ثلاثة.

أشعر بخيبة أمل مريرة.. أتعثر في خطواتي.. إذن صارت له مواعيد كأي أخصائي مشهور... ومئات الشهادات تظل رهينة في الجوارير!

الشميساني أفخم حي في المدينة.. حي المرفهين والمنعمين.. آه أيها الحي العظيم الذي يؤمُّك السياح وشخصيات المدينة والمثقفون الجالسون في مقاهيك مثل القطط يغازلون المعطرات ذوات الفراء والمخامل، وثريات الكرستال المدلاة فوق ظلام المدينة. مطهر دانتي أيها المقهى الصغير الذي نهرع إليك حين يتوفر لنا بضعة قروش نجمعها لنحتسي فنجان قهوة احتفالاً بنجاح باهر سأدخلك الآن كنساء الأثرياء.. إذ هناك لن يراني أحد، لعل نسمة عطرية لامرأة عابرة تهب على وجهي فتجلب لي الحظ.

أيهذا الجبل الذي وجد الناس فيك كنوزهم، لا شك أن أبا محمد يجلس الآن على تلة ذهبية يقلّب مصائر الناس، وإن صدَقَتْ وصفته فسأطلب منه أن يكتب لي حجاباً للوظيفة، ولن أنسى أن أطالبه بمدينة جميلة يتساوى فيها البشر، ويشبع الناس.. مدينة يسودها العدل والحرية، وطيور حمراء ترقص بحرية في أرجائها.

أحاول استرداد أنفاسي.. أتطلع إلى الواجهات الزجاجية، وألمح بحسرة البضائع المكدسة، ثم يصدمني وجهٌ أعرفه.. آه إنه خالد بشعره المجدول المتدلي كشجر استوائي هوائي الجذر.. خالد بوجهه الملوح بالشمس.. ماذا يفعل هناك؟ وما

الـذي أتى به من دول البترول إلى هنا؟.. أتطلع إلى الزجاج وأكتشف أنـه مَشْـرَب.. أدخل إليه فأجده غارقاً في كؤوسه.. وأقف أمامه مندهشة كدمية مهذارة وأهتف: خالد، ما الذي أتى بك إلى هنا؟ خالد، أقسمت عليك بالدرب الطويل، ما الذي جرى؟..

يتطلع إليّ بعين عبّأها الخمر والدمع.. آه أيتها الشقية، ما زلت تصدقين أحاديثنا الفارغة، وتتمسكين بفزاعات المبادىء، أما غَرقتِ في زوابع المدينة واكتشفت حقيقتها.. أنا لي درب واحـدة أعـرفها الآن.. هأنذا أغرق بعنق الزجاجة مثل الشاعر الأفـريقي الـذي كان شعره يهطل مطراً عند ناطحات السحاب يقطعه الحنين إلى وطنه، وأنتظر الطوفان مثل نوح لتمخر سفينته عباب بحر النجاة، وعند الشاطىء الافريقي الأم قيل له: إنك من البجع إذ لستَ ديكاً رومياً، ولا حبشياً، وتساءل في نفسه: هل يُعقل أنَّ هواء الغرب غيّر من طبيعة بشرته فصار أبيض؟.

ـ سمعت أنّك تزوجت؟

ـ مَن تقصدين؟

ـ فاطـمـة وثـلاثـة أفـراخ سنـونـو يفـتـحـون أفـواههم للطعـام.. وجـدّي الـذي قضى في المخيم.. وإخـوتي الـذين تبـرعـوا له بالـدم الـواحـد تلو الآخـر..

دمـاءً لوحتها شمس المخيم، وظل ينزف وينزف حتى كان دور دمي الذي كان ملوثاً بجرثومة الكأس، فقتل جدي.. لا لست أنـا، بل هو الفقـر والـذل.. الضياع الـذي دفع بي إلى عنق الـزجـاجـة لعلها أمي أو زوجتي.. ولعلهم طلبتي الذين كانوا يحاصرونني وأنا أجلس أمامهم ووجوههم الأشبه بأقراص نبات عباد الشمس الذهبية يلعقون بشغف كلماتي التي تقطر مثل أشعة الشمس.. وكنت أحدثهم أني طويت الصحراء ورميت بجثتها من النافذة، وعيني المدير اللتان كانتا تُطلان من ثقب الباب وأنا أتحـدث إليهم عن لون الحرية الأرجواني وطعمها الشهي مثل الكـرز، وكان يتلمظ شرهاً.. لا بل إنها الجدران المنيعة التي كانت تحيط بي فتخنقني.

لكن، لماذا تحاصرينني بأسئلتك؟ أقسم لك إنني بخير، ومـا زلت أتابع المشوار الجميل من المهد إلى اللحد.. هأنذا آكل مثل الناس.. أشرب مثلهم.. ولي مترين من الزينكو أتفيأ تحتهما.. ولي أطفال وشهادة، ومثقف وأنشر أبيات الشعر على حبال الغسيل في المخيم. وكل ذلك نِعَمٌ لا تعد ولا تحصى.. لكن أنتِ ماذا حصل معك؟ هل عُدتِ إلى بلدك؟ هل وجدتِ وظيفة؟ هل تزوجتِ وبنيت عالماً جديداً؟

وصَمَتُّ.. تحدثت عيناي.. عتبت من ذاتي، تساءلت إلى

أي بلد أنتمي . . لا أعلم كُلنا في بئر العذاب سواسية، ثم هتفت به: لكنك مثقف وحامل شعلة النور. . ألم تقل يوماً إن المثقف مثل المسيح يُصلب ويحمل آلام البشرية؟

ـ لكن الرياح أقوى من المشاعل. . رياح عاتية تطفىء كل شعلة. . أنا الآن أحترق، في عنق الزجاجة نور الحقيقة ينكسر هنا. . يتحلل إلى طيف. . أضواء ميتة شاحبة.

مد أصابعه المعكوفة مثل غراب وصاح: أقسم بكل المبادىء ونور الشمس ووجوه القطط التي تحاصرنا في المقهى. . تلك الوجوه البشرية الممسوخة، وتطلب العصفور الأحمر (المثقف) لتلتهمه أو تكسر جناحه، والبطاطا التي تحولت في بلادي إلى حجر، والمرأة التي صارت نافورة دماء، والطين الذي صار توابيت حجرية أن أخرج من شمس الزجاجة إلى قمر الكأس.

حدّقتُ في وجهه. . لا ليس هذا خالد الذي أعرف. . أغصان كثيرة تكسرت في أعماقي. . شجرة أعماقي خريفية تتعرى. . شوارع من السراب تمتد أمامي. . الطائر الأحمر الذي حلمنا به يتعرى. . يفقد ريشه. . يصير أجرباً ناعياً نفسه بجناح مكسور كجناح طائرة محطم!

سأرجع إلى أمي أدفن رأسي في صدرها، أشتم رائحة

ثوبها . . رائحة الأرض الطيبة، سأقول لها: انهضي واحملي طبق القش عليه حبات البندورة وضمم النعناع، وسيري مباركة يلفحك الدرب وعبق الطيب، وإن شئت فاحملي بعضاً من كتبي على رأسك . . أطعميها للناس . . لم يحن الوقت لي بعد . . وعند الأبواب اقرأي تعاويذك بيتاً بيتاً فما زالت الدرب طويلة جداً . .

البشاعة

دوّى صوت صاعق في جوانب المدينة، ثم ارتج المبنى مثل ورقة في مهب الريح، أضواء غرفة العمليات تتراقص بعنف تبشر بانطفائها.. البطن المفتوح أمامي فاغر فاه، مُحدّقٌ في عينيّ، والممرضات هرولن إلى الزوايا والممرات مثل الأرانب المذعورة للاحتماء من القنابل المتطايرة، بينما عويل سيارات الإسعاف يزعق من بعيد. ثمةَ وهج وضياء يلتمعان حتى السماء، وصمت أسود يحيط بالأشياء، ومسلّحون بوجوه ملثمة قد اخترقوا الممرات إلى غرفة العمليات، واقتادوا الطبيب أمامهم وسط التهديد بالسلاح تاركين المريض تحت رحمة الآلات في غرفة العمليات.

بطن المريض يختلج أمامي، يذكرني بالبشاعة التي تجري في المدينة، بينما أجساد مختلفة تنتظر أيادي الجراحين لإعادة تكوينها. في عنابر المستشفى حاملات عليها أجساد تئن، ورائحة الصديد مختلطة بالمعقمات، والدماء تفوح من كل الأماكن.. أنين.. أنين.. حيثما سرت أنين يطل من شوارع

المدينة . . من شبابيك بيوتها . . من جدرانها يدمّر أعماقي .

الممرضات انسحبن واحدة فأخرى وتركنني وحيدة في غرفة العمليات، إذ بالرغم من تساوي الموت والحياة هنا وهناك ـ في الخارج ـ فقد فضلت البقاء هنا، أحاول جاهدة أن أتابع تسريب الأمصال، وإصلاح الأجهزة الآلية لتمد الجريح بالحياة .

قطرات المصل تتسرب إليه عبر أنبوب قطرة قطرة، وصوت آلة التنفس الذي بدأ يعمل على المولد الكهربائي يرتفع ويهبط مذكراً بخواء مرير، وموت محدق ينتظر المدينة .

للمرة الأولى في حياتي أشعر بودٍّ كبير تجاه الجثة التي أمامي . . ها هي تغرق في غيبوبتها بعيداً عن صخب المدينة . . وأسأل: ماذا يرى الآن في غيبوبة التخدير؟ لعله يحلم ببساط الريح يمتطيه بعيداً عن مدينة الدماء، أو بغوانٍ يرقصن أمامه وهو متكىءٌ مثل سلطان غابر! أم أنه يحلم برغيف خبز بعدما عزّ في المدينة؟ لكن البطن أمامي شبه مفتوح . . يحدق بي . . والجرح ينزف قطرة فأخرى، وأنا أعمل جاهدة على ترميم ما جرى .

اخرجي قبل أن تضيعي بين الدمار (صاحت صديقتي زينب الممرضة وهي تهم بالخروج)، وفي نفسي هتفت: هل بعد هذا الدمار من دمار؟ هل أخرج لأنضم إلى أشباح المدينة المجنونة

التي تعول صارخة في الطرقات، واقترَبَتْ مني تهزني من كتفيّ، ثم هَرولَتْ خارجةً وسط صوت دوي آخر دمر جزءاً من المستشفى..

لا شك أن المدينة الآن مرتع للأشباح والكوابيس حيث جثث مهترئة خرجت منها الأرواح بعدما تركتها منتفخة في الشوارع، وأجساد أخرى مدلاة سقطت من الطوابق العليا سبقتها أعمدة التلفزيون فعلقت بها وصُلبت حتى الموت.

ما زالت الأشياء ضبابية أمامي.. أنا التي هربتُ من ليل طويل وأتيت هنا متطوعة بعدما هجرت عملي الأكاديمي في التمريض، كنت قد تعبت وأنا أبحث في كتب الفلسفة عن معنى للوجود وللحياة وللأخلاق، وانقطعت عن العالم ولم يبق سوى وجه أمي الغارق بمئزرها الأبيض نجلس أمام كتابها المقدس، وقد التهمت كتب الأدب كلها، لكن الأشياء ظلت دائماً مفككة غير واضحة.

وكنت أسير في الطرقات أحدق في المارة وأغبطهم على هدوئهم وكأنهم قد فهموا كل معاني الحياة، واطمأنوا ثم ساروا وأياديهم في جيوبهم غير آبهين لما يجري.

وكنت أنظر إلى ذاتي، فتاة تتخبط بين هدوء المدينة المزيف

وإلى صخب الحياة وعمق النظريات والتفسيرات، وما بين هذا وذاك أبحث عن ذاتي. وكان مدخلي جسدي، كان وجهي أسمر اللون مفعم بالبثور التي تغطيه، وكنت أهرب من حقيقتي، ثم تعلمت أن أقرأ هروب الناس من حولي في وجوههم حتى كأنهم كادوا يشيرون عليّ بتغطية وجهي أثناء استماعهم لحديثي الذي كان يشدهم إلى معابد العقل. حلمت بمدينة نظيفة بلا زيف أو عفن.. بلا حرب أو دماء.. نساؤها ورجالها أشبه ما يكونون بالبجع الأبيض الملائكي.. وقوس قزح يكلل جبهة المدينة، ثم احترفت التعليم لعلي أتغلغل إلى عقول الناس.. أعيد تنضيدها، وبعث الأفكار الطيبة من رقادها. وجاء الدمار الأسود يغلق صوت العلم والمدارس، واجتاحت الحرب الأهلية المدينة حرباً شعواء مدمرة..

آلة التنفس الاصطناعي ما زالت تتثاءب أمامي ساخرة وكأنها تسخر من تفاهتنا وبشاعتنا في قتل الأشياء ثم بكائنا عليها. ماذا تعني حياة إنسان في غرفة العمليات والجرّاح معتقل بينما في الخارج مئات الجثث المقتولة المشوهة؟!

اقتربت من الجثة.. تطلعت في وجهها.. صعقني جماله المسروق من (آلهة الجمال) وسط استسلام ملائكي لكل ما يجري، وقفت أتأمله.. إذا توقفت الآلة عن الضخ فمعنى ذلك

أنه سينضم إلى عالم الأشباح والموتى.

حاولت أن أحلل معنى ذلك الوجه الجميل.. أنا التي أدمنت منذ زمن مراقبة الناس ووجوههم.. وكنت أسير في الشوارع محدقة أردد في سري: لو أن لهذا عين ذاك، ولتلك عنق الثانية.. ثم أعود وأتطلع إلى وجهي (وجه فتاة أسمر مليء بالبثور يبكيني أمام هرب الناس منه). وكنت أهرب إلى أزقة نفسي أحاول تركيب الوصفة السحرية لإصلاح أخلاق الناس ومدينتهم وأبحث عن النقاء.

بمقدار نفورهم من وجهي كنت أحدق في وجوههم، وصرت أعشق وجوه الرجال البشعة، فما أن أُصادف وجهاً مشوهاً حتى ألحق به.. أطارده مثل صياد يطارد فريسته.. يقاتلها، يعريها ثم يوقعها في الشباك، ويلتهمها باكياً. وكنت آوي إلى كهوفي أراقب حقيقتهم، أستنطق أعماقهم، أستخرج حقيقة ناصعة لا يراها العميان من الناس، وكنت أتنسك أمام أرواحهم الجميلة ثم أصلي فَرِحَة أن مدينتي لا ترى فيهم كل هذا الجمال، وتشمئز من وجوههم، وتتركني وحدي أنعم بكنزي أثناء غيبوبة الرجال في عمليات التخدير.. يا الله كم كنت أعانق تلك الوجوه في غيبوبتها.. أحضنها، أقبلها، وأهرب قبل أن يكتشفني الطبيب.. وأسمع هذيانهم يهدهدني كأنه أناشيد وتراتيل.

حتى كان وجهـك يا نديم الـذي عبثـاً حاولتَ أن تخفيه عنـي . . طاردتـكَ طويلاً في ممـرات الـمـستـشفى . . وفي طريقـك . . وفي الأزقة باحثةً عن عملك وحياتك، وكنتَ أكثر غموضاً من يمامةٍ ترتل في سرها، ثم اكتشفت أنك نحات المدينة الذي ينحت وجوهاً جميلة، وأشياء ناطقة تُذكّر بعالمٍ جميل، ويكتب أوراقاً للمدينة لا يقرأها أحد. طاردتك يوماً، سِرتُ في الدروب . . لحقتُ بك، وعلى ضوء فانوس شاهدتُ وجهك، كنا نعبـر الممـر الضيق في عنبر المستشفى السري، وكنت أحمل المصباح خلفي حين أمسكت بي وبدأت تهزني :

ـ توقفي، هل مِنْ أحدٍ يضيءُ الدربَ من ورائه؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ قلت لك ضعي الفانوس أمامنا لنهتدي بنور.

ـ لكن الدرب مظلمة . .

ـ ونحن نبتدع الأنس والنور!

ـ لكنك تضيء للآخرين من خلال وجهك. ألستَ أنت صانع التماثيل الجميلة والكلمات المضيئة.

وعشقتـكَ . . تعـانقنـا . . أدركت أنك رجُلي الذي أبحث عنه . . وجهين التقيا في ظلمة لجيّة لِيُصلّيا معاً ويرتّلا، وغرقتُ فيك لأكتشف أعماقك المرمرية . . تساءلت: لماذا تكون الروح

جميلة بمقدار انطفاء الوجه والجسد، وتوقفت للصلاة لآلهتي التي منحتني رجلاً يهبني وجه «افروديت»، فقد وجدتُ ذاتي معكَ نقيةً طاهرة.

ابتدأنا نعيد زرع المدينة، وقررنا أن تكون لنا حياتنا المشتركة وبيتنا.. البحر الذي كان يمتد لنا.. ونومي على ركبتك على الشاطىء أمام الأمواج التي تأتي خاشعة تصلي أمام هدبينا.. وهديل النوارس الليلية المحلقة.. وصوت رحيل السفن من على شاطىء بيروت.

آه الآلة البلهاء تتابع تنفسها. هل يعقل أن الإنسان تسيّرهُ مجموعة من الأجهزة؟ هل البشر الذين كنت أرقبهم في الشوارع دمى تُربط إلى آلات تسيطر عليها، وبلحظة تفصل عنها فتموت؟!

صوت قذيفة أخرى تدمر جزءاً من المبنى، حيثما سِرت دمار.. دمار يغرق وجه المدينة.. آه لو أُعيد مدينتي.. هأنذا الليلة بين أجساد مقطعة نازفة.. أُفكر لو أمارس عملية إعادة بناء الأجساد مثل (فرانكشتاين) بعدما فشلت في ترتيب عقولهم وخلق مدينة أخرى.. كنت أتمنى لو أتسلل إلى رؤوس الناس أقرأ بماذا يفكرون أو يحلمون..

آه إنها لحظاتي المقدسة الآن.. سأجرب ماهية الخلق وقد انتابني جنون العظمة.. سأتحول لإنسانة عابثة، لعل هذه اليد التي سأضعهـا لذلـك الجـريح تكف عن العبث وتتحـول ليد حانية.. وتلك العين التي تحدق بـي الآن قد تكف عن التحديق وتنظر في وجوه البشر نظرة أرحم.. مَن يدري ماذا كانت تحصد في حياتهـا! وهـذه الأصـابـع المتشنجة أشبه ما تكون بأصابع «دراكولا»، لعلها تتعلم حمل القلم والكتابة للبشر مبشرة بالحب وبـالخير لعـالم أنقى، أو أنها تحمل الفأس تزرع الأرض، أو تعجن الرغيف.

يوم أتيت إلى هنـا متطوعة للعمل بعدما ابتدأت الحرب، وفقدت كل ما حولي، قررت الانتقال لمرحلة أعمق.. لدراسة النـاس وأجسادهم، ولحظة وقف الجراح يشرّح عضلات الوجه قال بتفاهة: هذا هو وجه الإنسان مجرد عضلات تتغير أحجامها قليلاً فتعـطي شكله القبـح أو الجمـال.. وجـوه تقبـلُ عليهـا الخلائق. ونظرتُ للفتاة المسجّاة أمامي، وكانت قد أتت لتعدّلَ قليلاً من الأنف لتخرج من بين يدي الجراح دميةً رائعة الحسن والجمال، وكان خلف باب غرفة العمليات ثري أحضرها بعدما نفر أحدهم من اعوجاج أنفها واشترط عليها قبل أن يتزوجها أن تجري العملية فتتحول لدمية جميلة.

نفرت من تفاهات المدينة وتزييفها لكل الأشياء، وتذكرت نقاء أمي التي صارت الآن حفنة رماد. حين اقتحموا بيتنا، كانت غارقة في تلاوة كتابها المقدس، عاجلوها بطعنة اخترقت الكتاب عند كلمة «الرحمٰن»، ثم أدمنتُ رؤية الوجوه المستسلمة تحت أضواء العمليات الجراحية بين أيادي الجراحين الملطخة، وكنت أتساءل أين قوة الناس وجبروتهم.. ها هي الأجساد نصف ميتة.

تساءلت عن ماهية الناس الذين أشعلوا النيران في المدينة؟ مَنْ يحلمُ بدمار مدينة عامرة؟ من هو ذاك الذي نفخ في أعماق البشر التدمير والبناء؟.. في الخارج يقوضون البيوت بيتاً بيتاً.. ينهبون الأشياء والممتلكات. يدي هنا تمتد في قلب جريح لتدليكه. تُرى ماذا كان يفعل في حياته؟ كم مرة أحبَّ بصدق؟ لا.. قد يكون أحبَّ نفسه بأنانية وتخيَّلَ أنه يحب الآخرين. يا إلهي كم تذوب معاني الأشياء أمام هذه الحرب القاتلة.. ها هم الناس يخرجون مثل النمل بلا أقنعة بحثاً عن الخبز والماء.

إني أعبث وأعبث.. في الخارج يمارسون عملية التدمير.. وأنا أمارس البناء.. أعيد خلق الأشياء، لعل المدينة قد أصابها خلل أو جنون بحيث تحوّل الناس إلى الرذيلة.. لكن ما أن انتهيت من عملية إعادة توزيع الأعضاء حتى لمحت أشباحهم تتطاول محدقة بي متوعدة تحمل هراوات وبلطات تكاد تقتلني..

وكنت أسمع تهديدها: «دعينا كما نحن.. لا نريد عبثك.. دعينا نموت أشلاء ممزقة كما كنا في حياتنا.. أجساد غير منسجمة مع أرواحنا حيث كنا نرويها من بحيرة شيطان»، وأجيب: لكنه ليس عبثاً أن أصنع حياة جديدة.. وأسمع من بعيد صوت عربدة وصخب السكارى في الحانة المجاورة للمستشفى، وصوت مطرب أجش يعلو ويعلو.. أو.. و.. في تأوُّهٍ بليد.

آه، من الجنون أن أحاول استعادة الأشياء، نديم انتهى.. منذ أشهر لم أره، لعله تصادم مع أشياء المدينة وتهاوى.. آخر رسالة وصلتني منه كتب فيها: صحيح أن الحياة جميلة، والأخلاق الحميدة رائعة، لكن البحث الحقيقي عن الخلاص أجمل. لم أعد أؤمن أن الكلام طريق للخلاص.. لقد حملتُ سلاحاً على الأقل لأدافع عن نفسي بعدما اشتبك بعضي ببعضي وتساءلت: حتى هوَ تلبسته رياح الجنون؟!

أمي الآن كغيمة متحللة تتناثر أمام تقلب صفحات كتابها المقدس، مدينتي مجرد ذكريات.. وجه المريض ما زال على هدوئه واستسلامه.. آلة التنفس الاصطناعي تفح في وجهي.

أيهذا الإنسان الذي صنع غروره بنفسه ثم دفن ذاته، تُرى متى ستنتهي تفاهتك؟.. صوت السكارى يجعجع حتى إنه

ليطغى على صمت المدينة.. أتطلع في الوجه الصامت يجذبني، صوت أعماقي يعلو.. ويعلو.. لكنه يحشرج.. يصطدم في الأشياء: خَلْقُ الله جميل ورائع، هارموني التناسق، متناغم الإيقاع.. ما نفعله نحن هو البشاعة.. ألمح وجهي في المرآة.. لأول مرة أراه نقياً جميلاً.. نحن نصنع البشاعة لا الإله.. نحن من يخلق الدمار. اقتربت من ذاك الإنسان المسجى ألتحم به.. وجه افروديت يشع فرحاً.. لعلها المرة الأولى التي يعانق فيها روحاً صادقة.. أعانقه.. أتشبث به بكل ما أوتيت امرأة على العناق.. نصير نغماً متناسقاً.

أيهذا المخلوق.. سأسكب في جسدك الجميل روحي لتأتي بإنسان كامل الخلق.. يأتي بعمار جميل للمدينة، وعالم آخر أفضل. آلة التنفس تختنق.. تكاد تحشرج. أيهذا الجميل النائم، لعل تزاوج روحي وجسدك يأتيان بعالم جميل.. الأضواء تنوس.. الآلة تنفث آخر ما عندها.. سقف غرفة العمليات يتداعى.. من بعيد أسمع الأصوات.. أصوات غريبة، لكنها جميلة لأشخاص قادمين.

ألكسندرا

ألكسندرا . . أيتها المرأة التي ينبعث من جدران بيتها رائحة التفاح الشهية تُذكّر بخمرة الربيع الدافئة، وأنا أصعد درجات بيتك الرخامية أخشى أن أتعثر بصوت قبلاتك المحمومة التي عبأتها في جيوب زوجك الراحل إلى عمله . . وحين أُصبح امرأة مسعورة تائهة في دوامة الحياة والعمل المضني، والوجوه القذرة المتحذلقة . . آنذاك أشق طريقي إلى بيتك القابع تماماً في منتصف الطريق من بيتي إلى غابة الصنوبر.

حين التقيت وإياك للمرة الأولى في معرضك الفني، أدركت أن وراء لوحاتك الجميلة بيت دافىء وزواج مريح . . وكنت أسمع همساتك الدافئة خلف كل لوحة، وحتى عندما انتهى الافتتاح الرسمي للمعرض وتفرّق الجميع، وجدت هنالك من يحضن خصرك، ويطبع قبلة على وجهك، قدمته لي: إنه زوجي . . وغبطت قلبك الذي ينعم بدفءٍ وحياةٍ كهذه، وأدركت سر دفء لوحاتك المعطرة . . وبيني وبين نفسي تساءلت: تُرى لو كانت زوجته عربية، هل كان يعاملها نفس المعاملة؟

أمّا أنا فقد حشرت جسدي في سيارتي الهرمَة، وسرت

تشاركني أضواء الليل السقيمة، وصوت المطرب (خوليو) يؤنس وحدتي.. لأصوات الرجال في حياتي معان خاصة، فهذا رجل ودود، وآخـر جحيم، وثـالث لعـوب... الـخ. وقـد أرسم شخصيات لأبطال قصصي من أصواتهم.

وأدركت أنك واحدة من أبطال قصصي الذين لم أكتب عنهم بعد.. أبطال ينعمون بحياة هادئة.. وامتدت بيننا أيام وصداقات وأنا المرأة الهاربة من الحياة.. ووجدت فيك تلك المرأة التي تعيش قصة حب حقيقية مع زوجٍ وفيّ، لطالما تمنيتها أنا.. أنّى لحياة مشاكسة إلّا أن تفتح عيون أصحاب القلم على حياة متعبة فيرسمون صوراً لواقع أجمل مما يرون.

دخلت غرفتي.. قفز بطل أسطوري من أبطال قصصي، عانقني وقبلني، ثم هتف: أيّتها المرأة المتعبة، هل قضيتِ وقتاً طيباً مع صديقاتك؟.. عانقني بود.. كدتُ أرخي رأسي على كتفه.. تذكرت أصوات الرجال الحقيقيين «ما هذا.. نساء آخر زمـان.. معـرض رسـومـات.. فن.. بلاهة.. المرأة خُلِقت للمطبخ والفراش..».

لا شك أن زوجـك الآن يحضن خصـرك.. يبـارك لك نجـاحك، لقد صفقوا لك طويلاً.. وأثنوا على اللوحات. هل رأيتِ يا عزيزتي أنهـا نتـاجُ دفء أيامنـا المشتـركـة.. ها هي

انعكست مقولة «وراء كل رجل عظيم امرأة» . . وفي سري أهتف «وراء كل امرأة عظيمة رجل أو رجال كادوا يحطمونها . . » . وهُرع أطفال قصصي يحومون حولي . . هذا يسحب عني المعطف، وذاك يمسح قطرات المطر التي تبلل خصلات شعري . . وذا يقبل الخد الوردي الذي لوحته حرارة مدفأة الحطب التي رسمتها على جدران بيتي . . ثم أشعلها بطل قصصي الأسطوري «رجل حنون معطاء . . . »، ورائحة المساء المنبعثة كلها كانت بانتظاري، لكن لحظة تطلعت إلى الساعة في غرفتي أدركت أنها الثامنة مساء، والمطر يسكب شلالات في الخارج، والغرفة باردة . . ولا شيء حقيقي إلّا خيالي الأسطوري . . وأوراقي وكتبي المنضدة، وفئران ترتع بين الكتب في غيابي فتؤنس وحدتي . . وللحظات تتطلع إليّ بعيون حمراء وكأنها تعاتبني . .

شعرت ببرودة قاتلة . . تذكرت نافذة المطبخ التي تركتها مفتوحة، هرولت لإغلاقها . . فتحت الثلاجة لأعد الطعام، أخرجت بيضة . . كسرتُ واحدة تململ بها جسم غريب، تطلع إليّ، مد لسانه، ثم طار لعله كان عصفوراً جمّده البرد والصقيع، فلما ظهرت له كوة الحرية فرد جناحيه وحلّق هارباً تحت المطر . .

لا شك أن الكسندرا تنعم الآن بعشاء شهي مع زوجها، أما أنا فقد هربت شهيتي، ولن أجلس مع الشبح الأسطوري على

الشمـوع نأكل عشاءنا . . مثل العشاء الأخير، ولن يكون خبزنا كفـافنـا . . أمسكت قطعـة من الكعـك أقرضها بين أسناني . . تنـاثـرت بضـع فتات من الكعك . . تراكضت الفئران الصغيرة تقـرضهـا بحبـور، بينما ارتديت جوربي الصوفي وجلست مثل عجوز على كرسي الهزاز أفكر.

أبطال قصصي الآن يغطون في النوم . . صوت المطر يهمي في الخـارج يؤنس الحارات الوحيدة والقناديل الناعسة . . دوماً كنت أحلم بحب يملأ حياتي، وأرسم صوراً لرجال لم أعرفهم، لكن حين أقـابـل النمـاذج البشـرية الحية أهـرول خائفـة إلى مخدعي . . ما الذي جرى؟ أين هي صورة الإنسان الحقيقي، الشهم، الشجـاع، الصادق . . لا يعقل أن الحياة قد انقلبت، لكنني الآن مللت هذه القصص، طويتها وعدت أتابع في الحياة وحيدة. الواحدة ليلاً . . فراشي بارد . . أطفأت النور ونمت كطفلة.

صخب . . ضجيج . . منـافسـات . . مقابلات صحفية . . مشـاكـل وهموم كثيرة، كل ذلك يحيط بـي في عملي . . وفي لحظات التعب كنت أهتف لذاتي : يا لها من حياة متعبة! لماذا دخلنا معترك الحياة مع الرجال؟ إذ ليس فيها شيء جميل . . إنها صراع وهدهدة طفل ينام في السرير تفضل كل منافسات ونجاح

العالم . . لكن لحظة أقطف النجاح أو أحقق نصراً، كنت ألعن كل المطابخ والبيوت الدافئة، وأهتف لجمال الحياة بعراكها . . والبحث عن الحقيقة والذات . . وأفرح لتشردي وحيدة كقطة تحت المطر . . وأنا أدرك أنها معركة مع الريح . . سفينة تصارع الموج . . والنتيجة لحظة انتصار إنسانية . حين أشعر أنه عمري ملكي لوحدي، أحب كما أشاء . . أقرر ما أشاء . . أنجح وأخسر . . وأقامر على حياتي مثل أي إنسان . . عمري ليس ملكاً لأحد، فعند موتي لن تدفن معي قبيلتي أو مدينتي، فما أن أعانق كفني وأتحد به، حتى أصير في ذاكرة البشر ورقة باركها النسيان «لكن ألا يمكن تحقيق النجاح برفقة رجل؟» . . سيكون ذلك أجمل وأقوى إن كان يدرك أنّ صحبة العمر ممتعة مع امرأة تدير معه دفة مركبهما عبر الحياة .

والحل؟!

لا أدري! مع عقلية الرجال كما أرى يصعب ذلك . . لا أريد أن أكون دمية ترفرف بعينيها خَجِلَة وأنصاع لأوامر هكذا . . أريد أن أشعر بأنني إنسانة حقيقية . . ضابطها أعماقها لا القبيلة أو المجتمع .

والحل؟

إمّا حياة قانعة مثل جداتي، أو ركوب الريح والمخاطر بحثاً عن معنى حقيقي للحياة . . وأرحل إلى الكسندرا . . أشتم رائحة

الورد تنبعث من بيتها على بعد أمتار. . أصعد إليها، هناك في بيتها. . أعيش حقيقة بطلات قصصي اللواتي أجعلهن سعيدات في الزواج. ضغطت الجرس. . توقعت أن يطل وجهها النضر كتفاحة شهية، وانتظرت قليلاً. . تساءلت: هل ذهبت وزوجها في مشوار عصري؟ أعدت الضغط على الجرس. . انفتح الباب، أطلَّ وجهٌ متعب ناعس. . امرأة في ثياب مهلهلة. هل أخطأتُ العنوان؟ لا، هذه ليست ألكسندرا. . دخلت البيت. . لوحات البيت التي تغطي الجدران حزينة مكتئبة لا يشع منها الفرح. . أزهارها جافة في أوانيها الكريستالية.

ـ ماذا جرى؟. . صَمْت. . ماذا حدث؟

ـ أنا وزوجي على خلاف ونوشك على الانفصال.

ـ لا أصدق ذلك.

ـ نعم. لقد اخترتُ حريتي. .

ـ لكن ألم تكوني متشجعة لحياة الاستقرار؟

ـ مللت مثل هذه الحياة. . أشعر ذاتي أعيش في قفص مقيت.

الكسندرا. . . وتبكي على كتفي. . هل سترجع وحيدة؟ هل ستتذوق لسعات الوحدة مثلي؟ هل لها القدرة على السير حافية على الجليد؟ هل بها طاقة لقهر كل هذا العذاب؟ وأتذكر: لكنها سترجع إلى بلدها وسرعان ما تحب غيره كما أحبته. . تحب وتكره. . وتفعل ما تشاء. . و. . تقطع عليّ صمتي بصوت مخنوق قائلة:

ـ إن عدت إلى بلدي سيعينوني في قرية معزولة عقاباً لي لزواجي من غريب وتركي لبلدي، وأهتف لنفسي: ما أتعس حياة النساء! حتى هناك في بعض بلدان الغرب لا حرية للمرأة في الاختيار.

غلّفَنَا صمتٌ كئيب.. ستائر البيت ثقيلة.. رائحة البيت باردة.. تواعدنا أن نخرج معاً غداً لنبحث في الأمر.. أنهيت عملي في الجريدة.. اتجهت إليها.. الشمس فرحة تملأ كبد السماء.. أقود سيارتي.. أنهب الطرقات. ما أجمل الحرية! لماذا تحزن؟ سترجع عصفورة طليقة.. قرنفلة تداعب خديها ألسنة الريح الجافة.. ستتخلص من كل الألسنة المقيتة لتحمل ريشتها وتسير في الدروب ترسم أحلامها كما تشاء.. لحظات وتكون قربي.. نجلس في السيارة مثل قرنفلتين قرمزيتين.. أشق طريقي إلى غابتي حيث السرو والصنوبر.. نصعد في منعطفات وعرة.. هذه بلوطتي، هنا معبدي.. هناك أغفو على الأعشاب البريّة كأية امرأة هانئة مطمئنة.. هنا أحاور السنونو.. هذا مشربي.. هذه شجرة اللوز أمي..

ـ اسمعي، لماذا الحزن؟ لقد جربت الرجال.. إنهم مثل الدمى يتراكضون خلفنا حتى إذا وقعنا في الشباك ملّونا وجروا وراء نساء أخريات.. أفضل امرأة عند الرجل هي تلك المستعصية، حتى إذا وقعت وصارت له لم تعد شيئاً، وركض وراء واحدة أخرى قد

تكون تافهة . . سوقية أو غبية، لا يهم، المهم أنها امرأة تستسلم في الفراش.

ـ قالت: نحن نسعى للاطمئنان والاستقرار، وهم يسعون للمتعة والركض الرخيص.

ـ ما الذي حوّله عنك؟

ـ واحدة تافهة. هل المرأة عدوٌّ للمرأة؟ لا أدري!

ـ لكن، لماذا يعجب الرجل بامرأة تافهة؟ لا بد أن بهن أسراراً تشعر الرجل بأنه سيّدٌ كبير، وعظيم، فيمارس سيادته عليهن. .

ـ ولكن ماذا عنك، كيف تعيشين الآن؟

ـ وحيدة!

لقد خرجت من هذه الدائرة. . لعنة المطاردة بين الرجل والمرأة فتحت عيناي على أمور في الحياة أوسع وأشمل. . لا أريد لحياتي أن تمضي في صراع باطل، وركض وراء سراب خيالي، لقد وهبت حياتي لأمور أسمى، وعشقت كل ما في الكون، أمّا هذه اللعبة فأنا لا أتقنها أبداً، أن أرتبط بإنسان لا أضمن لحظة يخونني أو يملني، أن أكون مجرد واجهة اجتماعية فارغة، فهذه أشياء أمقتها. . إن لم يكن رباطاً مقدساً يسعى كل طرف للحفاظ عليه، فلا ضرورة لمثل هذه التمثيليات الهزلية الفارغة التي تتم تحت اسم الزواج والحياة الاجتماعية. يبدو أن الحياة التي نرسمها في الخيال أجمل بكثير من الواقع. . وحتى

الشخصيات التي نرسمها تبدو أجمل بكثير في الخيال. . اسمعي: لماذا لا نعيش معاً، أنا أكتب قصصاً، وأنتِ ترسمين. ستكون لنا حياة مشتركة جميلة. . نمضي معظمها في الغابة. . امرأتان معاً. سنعلق نتاجنا على الأشجار، لتهب الرياح تحمل حكاياتي ورسوماتك للمدينة لعلها تصبح أجمل. . ونعيش معاً في دار واحدة. أذكر يوم أتيتُ الغابة وحيدة. . غنيت فيها، سمعتُ صوتي حراً طليقاً، سمعت أصداءً تجاوبه. . ركضت. . هرولت. . تعبدت بين أشجارها الباسقة، فجأةً برز لي شبح رجل ضاحك، حسبته شيطاناً، كان فيه شيءٌ ما غامض. . انفجر صائحاً: هل تشربين كأس نبيذ؟ قلت برعب: أين هو النبيذ؟ لا ألمح شيئاً! ها هو، ألا تَرين؟، وكان يمارس حركاتَ بهلوانية تشبه قطاف العنب، ثم انفجر بضحكة مجنونة صائحاً: أنا باخوس إله الخمر، ألا تعلمين من أنا؟ أنا مجنون وأنتِ حالمة، منذ زمن وأنا أرقبك تأتين وحيدة تكتبين على الأشجار، تخلقين قصصاً ومسرحيات. . أنا هربت من الحقيقة إلى الجنون، وأنتِ من الواقع إلى الحلم، ثم أجهش في البكاء وهو يردد: لماذا لا يكون العالم جميلاً كما نريد؟

ساد صمتٌ ثقيل بيننا. . تطلعت إلى الكسندرا وهتفنا معاً: أجل، لماذا لا يكون العالم جميلاً؟ علاقات الرجل بالمرأة جميلة كما نريد. . تعانقنا كنخلتين باسقتين، غنينا بصوت واحد

لمطربة فرنسية (ميراي ماتيو): الحب الذي يموت لا أريده أبداً.. غنينا بلغة عربية.. وفرنسية.. إنجليزية.. بكل لغات الأرض، فالمرأة واحدة، ومطالبها واحدة «حب.. دفء.. صدق.. وحياة كريمة..».

هبطنا التلة معاً.. حملنا بضع أكواز من الصنوبر وأعواد السرو، وعدنا درب المساء.. توقفنا في الطريق.. اشترينا كعكتين ورغيفين من الزعتر.. سنحتفل معاً، وسيكون عشاؤنا الأول على الشموع.

في الطريق لفّنا صمت قدسي.. تحركت آلامي، هل أحدثها عن معاناة المرأة الوحيدة؟ عن الليالي الباردة.. عن الناس والألسنة، شدت على يدي.. لمحت دمعة ساخنة تنفر من عينها.. بعد المغيب تظهر البرودة عارية. هل كان ضوء الشمس يدفئنا فيدفع بنا إلى كل هذا الحماس والأمل؟ وصلنا منزلها.. صعدنا الدرجات معاً.. أمسكت مفتاح بيتها، ما إن فتحت الباب حتى تفاجأنا بالأضواء الغامرة.. وفي الصالة مائدة عامرة وشموع حمراء مضيئة.. ثم أطل زوجها فرحاً يحمل باقة من القرنفل الأحمر. تطلعتْ إليه.. ترددت ثم فتحت يديها فرحة، وجرى لقاء حميم بينما سمعته يردد: هل كنتِ تعتقدين بأنني أستطيع الاستغناء عنك.. لقد كانت تجربة قاسية مجرد ابتعادي عنك.

وأنا كذلك . . هتفت ألكسندرا . . يجب أن نعيد النظر في الأمور . . لمحت دمعتين تنحدران معاً .

أنا تسللت على رؤوس أصابعي . . داهمتني رائحة التفاح المعطرة . . حملت معي رغيفاً من الزعتر تاركةً الثاني ليكون مائدة حبهما . . هرولت إلى أبطال قصصي . . وفئراني المنتظرة لفتات الكعك قبل أن يعمر بيتي بمائدة حب فتحرم الفئران من أكلها . .

« امرأة من ورق »

إنـك الآن تعبـرين جسـر الأحـلام جميلة وحيدة . . أميرة سليمان . . لا محظية من محظيات ألف ليلة وليلة . . ها هو أمير الرجال يستلبك على بساطه السحري ، بينما تموت مئات الحريم قهراً وحسرة غيرةً منك .

هاأنت تطوفين في برك السّـاتـان الخضـراء كأميرة وسط الضفادع ، وصوت مليكة الضفادع ينق . . إنك تدخلين الآن معه إلى سراديب ألف ليلة وليلة . . إلى الحلم الوردي . . تشعرين بعـالم سحـري من النشـوة . . عالم لا تحلم بمثله النساء . ثم سمعَتْ صوتَ أمواج قوس قزح تتمزق على ستائر وردية . . وخرير مياه وصوت قبلات محمومة ، صمت الطبيب النفسي ثم صَرَخَتْ بوجهه :

لا . . لا أحب زوجي . . ولن تستطيع أن تجعلني امرأة له . . إنني أكـرهـه من الأعمـاق . . هل لديك أقـراصاً تجعلني أحبه وأعيش معه كأية زوجة عادية؟

وصمت . .

إذن توقف عن ممارساتك الصبيانية . . وفتحت حقيبتها التي تفوح

منها رائحة العطور، ثم دفعت له خمسين ديناراً . . وخرجت وهي تتمتم في سرها: لا بأس، سيدفع أبي شيكاتي التي تغص بها حقيبتي وأحتار كيف أصرفها بعدما اشتريت كل الأشياء التي أريد . . لا لست أنا بل هو أبي . . ذاك الذي أقسم أن يشتري العالم لابنته الوحيدة المدلّلة . . الشقراء . . المرأة السمكة ذات الحركات الزعنفية المضطربة والنظرات الحادة . . واشترى لي كل ما أريد، لكنه عجز عن شراء ذلك الإنسان الذي يُمتعني أو يُشعرني بأنني امرأة مثل سائر النساء تفهم جسدها . . ولغته . . أمّا ما أعيشه فهو الضياع، وما أقرأ عنه في الكتب عن حياة الناس الطبيعية مجرد خيال ووهم . . وباطل ما يجربه معي الطبيب النفسي منذ زمن .

أذكر كيف اختار لي أبي مواصفات الزوج، رجلٌ طويل القامة، وسيم الشكل، أبيض البشرة، ثري يليق بابنته، ثم حنطني في الطابق الثاني من الفيلا الفارهة حتى يسمع وأمي حركاتي وتنفسي . . وسيري . . وخلجاتي . . وعلى الكتالوج تم اختيار شكل أولادي بما يتناسب مع شكلي . . نقودي وشيكاتي . . وعلى حائط الفيلا علّق اسمي على لوحة نحاسية . . أما زوجي فهو مجرد واجهة جميلة ونظيفة تسير معي . . ترافقني إلى سهراتي . . حيث لا يجوز للمرأة أبداً أن تظهر وحيدة بلا رفيق .

شهـادتي الجـامعية تم شراؤهـا لي من أضخم الجامعات العالمية ذات الاسم الرنان، وحتى العمل عندما توظفت معلمة لم أُطقـه.. إذ كنت أشعـر بالطالبات كفئران تجلس قربي.. عيونها تنظر إليّ شاخصة.. ثم مللت هذا العمل، وعملت مذيعة في التلفـزيون.. وكان يخيل إليّ أن فئراناً تركض من حولي، وأني أميرة النسـاء أُطل على كل بيت فتهرب الفئران من حولي «أقصـد الأطفـال الصغار».. بل كنت أحمد الله أن المذيع لا يستـطيع رؤية ما يجري في البيوت العفنة، وإلّا شاهدَ فقراً.. وقبحاً.. ومع ذلك طلبت من أبي أن أترك العمل، فالعمل مهزلة للمـرأة يستهلك منها عقلها.. وجسدها، ويترك تجاعيداً مقيتة على وجههـا.. خَرَجَتْ من عند الطبيب.. حشرت نفسها في سيارتهـا الفـارهـة.. أرخت الستـائـر سميكة بينها وبين العالم وسارت تحدق في مرآتها لا ترى إلّا نفسها وتهمس: لماذا لا تُقدّر المـدينـة مواهبي.. سأدفـع ثمناً لكل الأشياء، لحظات ويأتي عشيقي.. ويشبـع رغبـاتي وسط أنغـام البيانـو.. والستـائـر المـدلاة.. وصـوتـه يهمس: إنـك أميرتي الجميلة.. حلمي المضيء، ويمسـك قدمي الصغيرة يكـاد يرتشفهـا، بينما عينا زوجته تنوسان حسرة، تلك الزوجة المهلهلة التي لطالما حدثني عنهـا.. آه، لتحملها الأبالسة.. لاتقدر موهبته الفنية.. بينما أراه يسكبني في كل لوحة يرسمها. منذ سنين وأنا أعمل جاهدة

على إبعاد النساء عنه . . سيما نساء الطبقة المخملية المرفهة . . وأتحايل على زوجي حتى لا يشك بأمري . . يا للزمن الضائع . . كيف لم نلتقِ من قبل . . إن تركت زوجي الآن سأصبح حرة . . وسألتحق بعشيقي . . نسافر معاً . . نحلم معاً . . إنه عبقري وزوجته وكل النساء قبلي لم يفهمنه من قبل . . والعقربة السوداء (أقصد زوجته الأولى) ما تزال متعلقة بأذياله من أجل فئرانها الصغار . . الأفواه الجائعة . أنا أُدرك أننا خلقنا لبعض . . لكن أولادي . . آه لا شيء . . سيذهبون إلى مدارس داخلية في سويسرا . . حمداً لله أنني لم أُنجب بنتاً تنافسني . . لِمَ لا وأنا كلما حملت هرولت إلى الدول المتقدمة وفحصت، فإن كان ذكراً أبقيته، وإن كانت بنتاً استرخيت على سرير العمليات وطر . . دتها . لم يخلق الله أجمل مني . . نظرت في المرآة . . إنني دمية . . دمية رائعة . وصلت الفيلا الفاخرة، ثم هبطت من السيارة وهرع الأولاد للقائها . . صرخت بالأول، ولطمت الثاني على وجهه، وصاحت بالخادمة ثم هرولت إلى مخدعها تستعيد حلمها . . وتقلبت على الفراش بشكل مجنون . . الهاتف أبله ملحاح يرن . . يقلق نومها . . تسحب السلك، لن أستمع له . . لا بد أنها مكالمة للخادمة من صديقتها السيرلانكية .

وقفت الخادمة تتوسل إليها بالباب : أتوسل إليك سيدتي . .

إنني بانتظار أخبار عن طفلتي المحمومة في بلادي البعيدة حيث أهلي.

ـ كفـاكِ دلعاً.. مثلك لا يصلح للأمومة.. وهتفت في سرها: مثلها ماذا لديها؟ فئران سوداء؟!

ـ لكن أرجوكِ فهي في حالة خطرة. ولم تأبه بها، بل أسرعت تدفن رأسها في الوسادة بعدما أغلقت الباب بعنف وراحت في إغفاءة طويلة.

استيقظت عصراً.. جاءها فنجان القهوة مع الماء المعطر إلى سريرها.. جلست ترتشفها بعدما طلبت من الخادمة أن تعيد شريط الهاتف إلى مكانه.. وعاد الرنين.. رفعت السماعة: آلو مَن؟ نعم.. لا يمكن! ماذا تقول؟! إنه يخرج مع امرأة أخرى في سيارة حمـراء صغيرة، ويذهبـان إلى أمـاكن عديدة؟! لا يعقل ذلـك، عشيقهـا لا يفعـل.. إنـه يحبها.. لكنه لا.. تافه.. حقير.. مرتزق.. لا لا.. إنني أحبه، هتفت في سرها وصفقت الباب بوجه الخادمة.. اخرجي من هنا.

في المسـاء اصطحبها زوجها إلى حفل برجوازي.. سافر حيث الموسيقى تصدح والستائر مدلاة، ونساء عاريات النحور تفوح منهن رائحة الشهوة، كل امرأة قد وجدت لها واجهة تتكىء عليهـا.. رجلاً يدفع ثمناً لملابسها.. والبيت الفاخر والسيارة.

أليس الزواج مجرد ضرورة اجتماعية؟! مؤسسة للزيف والنفاق؟!

تدخل امرأة وحيدة في الثلاثين من العمر إلى الحفل.. يدور الهمس واللمز من حولها، ثم تسحب كل امرأة يد زوجها وتسير مثل طاووس مختال تاركة المرأة لوحدها. يدور الشراب في الرؤوس.. تحلم النساء.. وتحلم هي بعشيقها.. أليست هي أجمل النساء؟ ها هو يطل العشيق الرسام وتدور من حوله العيون.. يرمقها بنظرة حالمة.. وينتقل في الصالة.. وتبدأ الثرثرة حول الإجازة وأجمل الأماكن لقضائها.

ـ سأقضي إجازتي في لندن وباريس هذا الصيف.

ـ وتهتف امرأة أخرى: آه، لم تعد مريحة، إنها بلاد الفقراء، سنقضي الصيف أنا وزوجي في منتجعات مونتريال، إنها أفضل بكثير.. ويصفق الزوج ببلاهة كطاووس يستعرض ريشه أمام النساء.. وتنسحب المرأةالوحيدة من الحلبة كاسفة وهي تلمح يد أحد الأزواج تمتد خلسة إلى ظهر امرأة عارٍ تقف قرب زوجها.. إذن هذا هو الزواج؟ تهتف المرأة الوحيدة؟ أرقام.. أرصدة.. بنوك؟ نساء تافهات.. ورجال فارغين؟ أما مفهوم الجدات عن الأسرة الطيبة، والمرأة التي تعجن وتطعم الأولاد.. والعفة والإخلاص.. هل هي معانٍ قديمة بالية؟

وتنسل من الحفل تاركة مثل هذا الصخب وأصحابه، بينما تتنفس نسيم المساء والوحدة النبيل.. وفي الصالة يرتفع صوت

العربدة . . وتتحول النساء إلى ذئاب . . ينشبن مخالبهن الحادة، وينساح المكياج لتظهر وجوه خاوية كأنها جماجم بشرية خرجت للتو من مدافنها . . ويتفرق الجمع تحت عواء الليل الطويل .

الخادمة ساهرة تفرك يديها : سيدتي ، ابنك الصغير مصاب بالحمى . . سهرت عليه ، والكبير سيتقدم للامتحان غداً ، أعطيته كوباً من الحليب ، وتردد : ابنتي . . ابنتي في سيرلانكا ماذا حل بها؟ وتسرع السيدة إلى مخدعها تسكب الحلم من عينيها . . لو أحرق كل نساء العالم وأبقى لوحدي أميرة البجع ، لا أسمع إلّا صدى صوتي في البحيرات .

الليل طويل . . تتقلب في فراشها . . يمد الزوج يده بحركة عفوية إلى صدرها فتصرخ . . ابتعد عني . . إنكم نجس أيها الرجال . . إنني أكرهكم . . كان يجب ألّا أتزوج وأدخل راهبة . وفي الصباح أسرعت تلاقي عشيقها . . جلست أمامه تستعرض أزياءها الفاخرة . . هذا الحذاء ابتعته بخمسة آلاف فرنك . . العالم كله أمامي مثل الذباب . . تتطلع في وجهه : هل حقاً يُحبّ امرأة أخرى غيري؟ هل هي أجمل؟ لا لن تكون . . أترى؟ أفضل؟ لا تصدقي . عادت إلى البيت نشوى ، أطلت الخادم العبوس : سيدتي أتوسل إليك أن آخذ إجازة للسفر إلى بلدي من أجل ابنتي ، لقد سأل عنك اليوم سيد . . . ي ، ولم تسمع ، فقد صفقت الباب بوجهها وراحت في إغفاءة طويلة . .

في الصباح اجتمع شمل الأسرة.. الزوج صامت.. الخادمة تطوف على المائدة تلبي طلبات الزوج والأولاد.. هي خرجت بقميص نومها الشفاف تنضح منه رائحة الخيانة.. الزوج يشرب كوب الحليب ثم يتوقف فجأة وينادي على الخادمة: مونيكا، أحضري لي كأساً من النسكافيه.. في عينيه غضب ونظرات قلق. تحاول الحديث مع أطفالها، لكنهم واجمين.. منذ متى لم تحدثهم.. هل يعقل أن يكون الزوج قد اكتشف أمرها؟ لماذا رفض شرب كوب الحليب؟ هل بات يفضل اللون الأسمر على الأبيض؟ هل يحب الخادمة؟ تشعر بعرق ساخن يتصبب من جسدها.. تخشى الاقتراب من المائدة.. عيون الصغار تعريها بطهرهم وبراءتهم.. الزوج يجلدها بصمته.. جسدها ينضح ماءً.. الخادمة تنتحب بصوت مرتفع على طفلتها.. الصمت يطبق عليها.. ينسل الأولاد ومعهم الزوج.. الخادمة تحمل حقيبتها ويمسك الزوج بيدها، هيا إلى السيارة، سأوصلك إلى المطار.. يتحلق الأطفال حول السيارة، ثم تنطلق بهم وتظل المائدة خاوية.

تسرع للاتصال بعشيقها كآخر ورقة.. الهاتف أبله وملحاح.. ليرحلوا إلى الجحيم.. لن أبقى وحيدة، سأتصل بعشيقي لنتزوج ونعيش هنا.. يرد صوت امرأة حزين كأنه آتٍ من بحر الضياع: مَن تريدين؟ فلان؟.. آه زوجي.. من أنتِ.. إنه

لن يرجع اليوم ولا الليلة.. لقد ذهب مع إحدى عشيقاته، وطفله قد انكسرت رجله وأنا أدور به من مجبر عربي لآخر.. لقد شاهدته اليوم وأنا أقطع الشارع مع امرأة في سيارة حمراء صغيرة.. ثم أجهشت في البكاء.

سقطت السماعة من يدها.. هل حقاً فعلها؟! امرأة أكثر غنىً.. سيارة فارهة.. تتطلع إلى ذاتها.. تتذكر حلمها الليلي، وقد دخلت إلى كرم عنب أبيض داسته بقدميها، ثم هرولت صوب عنقود أسود اللون ما إن لمسته حتى صار خلاً ترتع فيه الديدان.

تطلعت في المرآة.. شاهدت وجهاً شاحباً.. ماء الخيانة يسفح على وجهها، يصب في أكواب أطفالها الذين رفضوا تناول الحليب.. ورفضوا أن تجمعهم مائدة واحدة معها.. الخادمة ضحّت براتبها وسافرت وراء المجهول إلى حيث ابنتها.. تتجه صوب المرآة.. من أنا؟ أين هالة الجمال التي كانت تحيط بي؟ مخامل الحلم.. أحلام الساتان.. تسير أكثر، تظهر صورة امرأة هرمة مشعثة في المرآة.. هذه ليست أنا.. تبحث عن وجه آخر.. تسمع عواء ذئبة محبوسة في أعماقها فحيح الأنثى.. لا أحب أبي ولا أمي.. ولا نقودي.. هل يعقل أنني لم أحب أحداً.. لا زوج ولا عشيق.. من أنا؟ هل أصبحت هيكلاً فارغاً؟.. نسمة خريفية باردة تدخل من باب المطبخ.. تلقي

إليهـا بورقـة مكتوب عليها بيد الزوج (وداعاً) . . محدثة صريراً يعبث بالسنين الماضية من عمرها . .

وأوراق الخريف التي تعبر إلى أرض المطبخ تفترشه، وامرأة تغـوص في عالم الهـذيان الهش المتلاشي حيث كانت حكاية امرأة من ورق .

الرف الأبيض

ليلة أخرى.. مدينة أخرى.. عالم آخر.. وجوه أضواء.. قناديل.. عالم الألعاب النارية المتوهجة يضيء (والت ديزني وأنا يا أنا كشرارة أفلتت من بين حزمةِ وهجها، فلا حرقت ما حولها وأججت النار ولا احترقت واكتوت برمادها واستراحت).

ليلة أخرى ويوم آخر وأوراق روزنامة العمر التي رسمتها بيدي واحدةً فأخرى أنتزع كل ليلة واحدة ويبقى أمامي أكداس من الأوراق لا أدرك مصيرها، فتارةً أعتقد أن يد الموت ستمتد عنوة وبعشوائية مُبعثرة انتظام أوراق عمري، وأُخرى أُحس أن الأقدار رتيبة لا مبالية تتركني أنتزع أوراق حياتي دون أن يرف الزمن أو يرمش، وأنا مثل فأرة وقعت في المصيدة، تدرك أن خروجها من المصيدة يعني الجحيم.

بنفس لا مبالاتك في النظر إلى جسدي، لا مبالاة سمائي واحتباسها عن المطر، لأيامٍ والصقيع يلتهم أصابعي وأنا أدور في الشوارع كقطة مشردة أرقب الواجهات المزينة بأضواء أشجار عيد الميلاد ولكنها ليست لنا. بنفس اللامبالاة أمنحك الليلة ذاتي، مثل امرأة ثلجية تترك الأولاد ينزعون عنها ثيابها فتصفق الريح

عُريها، وتمطرها العواصف الثلجية.

«أيتها المرأة الجليدية التي اعتقدت في جسدك حرارة لهيب بلادك بعدما سئمت الأجساد الشمعية الباردة». وأصمت وأنا أدرك أن الرجال لا يبحثون في المرأة إلّا عن شيء واحد...!

والسماء جائزة فاغرة فمها كجسد امرأة بيضاء عصماء مستعصية وأنا يا أنا أرقب الفوضوية في غرفتك.. هنا كتبك، وأوراق وجيتار، وأشرطة مادونا، وأشياء مبعثرة.. مشكلتك أنك لم تستطيعي أن تكوني غربيّة هنا وتندمجي مع التيار. ردد ذلك وهتفت «وحتى في بلادي الشرقية لم أستطع أن أكون عربية!». معنى ذلك أنك تعيشين الضياع والعمر ينقضي سريعاً وستهرمين وتفوتك الملذات.. هل تعتقدين أنك عندما تصبحين في الخمسين ستستمعين؟

وأقول: إني أبحث عن متعة بلا عذاب أو مطاردة.. وجئت هنا أرقب ما يجري علناً في بلاد التحرر، وأرقب نساءه ورجاله في الوقت الذي تذبح فيه نساء في بلدي...!

اخرجي عن صمتك بالله عليك.. وبنفس الأصابع اللامبالية يحيط عنقي ورأسي.. وأنا يا أنا أرحل بين عالمين: عالمي الشرقي وعالمي الغربي، وموتي الضائع في منتصف

الطريق، وصوت أمي من خلف ديكوراته، وفوضى غرفته يرتفع محـذراً: «البنت شرفهـا! حياتها أو موتها. . وأبتعد عنك أبتعد ومئـات الشـطآن والمحيطات تفصـل بيننـا. . ومئـات القـرون والحضارات». . وكبرت، كنت أخشى صوت الرجل أن يخدش أنـوثتي، وتحـاشيتهم جميعاً، وظننتهم ملائكة، وحافظت على ممتلكـاتي أكثـر ممـا يحـافظ قبطان على سفينته، وليلة زفافي سمعتهم يتنصتـون، وتخيلت الـرصاص الذي سينطلق ملعلعاً فرحاً بالدماء المهدورة، تخيلته كيف كان سيسكت رأسي ويغرقه في الفراش لو خنت لحظةً أمانتي. . تمنيت ليلتها لو كان الارتباط بيني وبين زوجي ارتباطاً إنسانياً عقلياً فكرياً جسدياً لا جسدياً فقط.

لكن هاأنت تحاول أن تمتلكني جسدياً، وبعد ذلك سنسير مثل قطين لم يربط بينهما سوى التهام عظمة متآكلة، واعتصمت اعتصمت طويلاً وسمعتها الأصوات المتسائلة باردة: شرقية. . معقدة. . وأنا تمنيت الإنصاف!

ثم اكتشفت خيانة زوجي. . هرولت إلى أبي ثم أخي. . ألم يرفعـا رأسيهمـا لعفتي، فلمـاذا لا ينصفاني وقابلاني بلا مبالاة باردة. . ثم تماديت وتحدّيت. . وانتظرت إنصاف المدينة التي ترقب نساءها واحدة فأخرى. . وكانت جامدة صامتة تلك القبيلة

التي وقفت تسترق السمع لحظة ذبحي . . تفرقت الآن . . أخذت غنيمتها وتركتني أصارع آلهتي وحدي . . وهرولت إلى المحامي أطلب الطلاق، أليس هو المنصف القانوني؟ كان الثلج ليلتها يستولي على المدينة وكنت أركض مثل شعلة ملتهبة (ذاك المحامي نزيه . . أعرفه)، وأخي زكّاه لي كأعز صديق وأنزه إنسان على وجه الأرض . . دخلت مثل قطة مشتعلة الأوداج ألهث وأنفض الثلج عن رأسي وجسدي .

كانت مقاعد غرفة الانتظار فارغة، وبحركة لا شعورية اندفعت إلى باب مكتبه وفتحته بسرعة لأفاجَأ به يغرق في المقعد مع سكرتيرته المخطوبة في وضع مشبوه، ومن خلفه سمعت أنّات زوجته المسكينة . . !

ثم هجرت مدينتي، وأتيت إلى فلوريدا أتابع عملي (وحده عالِمُ الذاكرة أستاذي والبروفسور المشهور الذي احترمته) وكنت أغرق عالمي بكتبي المهترئة وأبحاثي . . وكان يجري تجاربه على أساس علاقة الذاكرة في تنغيص حياةالإنسان وموته مبكراً . . كنت أراه مثالاً للحضارة والإنسانية . . ليلتها سهرنا حتى الصباح ونحن نجري أبحاثنا على الفئران المحقونة بالسائل الدماغي المأخوذ من ذاكرتي، واشترطَ عليَّ أن أُعيد بصوت مسموع ما يتوارد على ذاكرتي لحظة تنبيهها بمؤثر أو صوت خارجي، ثم

نراقب أثر ذلك على الفئران المحقونة. ابتدأتِ التجربة: هو يثير مناطق في ذاكرتي بواسطة تيار كهربائي، وأنا أتحدث إليه:

«سيدي يا سيد.. إنهم يحملون البلطات يهرولون صوب صبية في الخامسة عشرة من عمرها غرّر بها أحدهم في قريتنا.. ها هم يذبحونها على الفوانيس.. ها هي الأرض تشرب من دمها.

سيدي يا سيد.. ها هم الرجال في قريتي يعودون منتصرين من الذبح وعلى شموع الفرح يعشيهم المختار.

سيدي يا سيد.. ها هو نصف القرية قد هوجم من قبيلة أخرى واغتُصب.. يا سيد يا سيد ورجال البطون غرقوا أكثر في طعامهم.. ورددوا أنه قدَرُنا اغتصاب الأرض، ولم يكن قدرنا اغتصاب البنت.

سيدي يا سيد.. إني أرى طلبة مدرسة القرية شباب عزل يخرجون احتجاجاً على نصف القرية، لكن رجالاً ملثمين يضربونهم بالهراوات وبالعصي.

سيدي يا سيد.. إني أشكرك من أعماقي على الإصغاء، إذ إنني في بلدتي تحدثتُ عبثاً يا سيدي.. يا...».

جرس الإنذار يرن.. أضواء المختبر الحمراء تضيء بشدة.. أتطلع إلى الفئران.. أجدها قد احتضرت. معنى ذلك

أن مزيج الـذاكرة قد قتلها . . إذن نجح افتراضه . . أنا أُصاب بصدمة الذهول . . أنظر إلى الفئران . . عيونها حمراء حانقة تكاد تنفجر في وجهي لأني فجرت شحنة في رأسها . . لكن لماذا مِتُّ أيتها الفئران العزيزة؟ هل صَدَمكِ ما أحمله في ذاكرتي ويدور في رأسي مثل طاحون؟ لكني عجباً لم أمت للآن، ولا رجال قريتنا، لكنك بيضاء مدجنة مرفهة لا تحتملين مثل ذلك . . لكن ما بال البـروفسور صامت؟ تُرى: لأنه أجنبي لا تهمه حكاياتنا أم لأنه إنسان أتطلع إليه وأجده يغط في نوم عميق؟ . . أنظر إلى الفئران آسـفـة: سامـحـيني أيتهـا الفئـران . . أزعجتـك بقصصي وحكـاياتي . . لن أعمـل معه بعد الآن في تجاربه . . لن أتبعه أبداً . . وهرولت من المختبر وهجرت أبحاثي .

عدت أجمـع أوراق السنين الممـزقـة . . وكـانت خمس سنوات، خمس سنوات وجرس هاتفي لم يرن . . خمس سنوات لم يسأل عني أحد وكنت أعتقد أن بلدتي ستبكيني وتفتقدني . . خمس سنـوات والغـربـة تلتهم أصابعي وأظافر عمري في بلد الصقيع البـارد . . أنـا التي قرأت اللامبالاة في وجوه أهلي ليلة رحـيلي . . تمـنيت لو ينبـري أحـدهم فيمنعني، أو تتعـطل طائـرتي . . وحده صبي البلدة الأخرس انبرى من بين الأشجار وسط الليل وعـوى عواءً إنسـانياً جريحاً ثم هرول ودمع ساخن ينحدر من عينيه .

خمس سنوات وعمري يا عمري يضيع هباءً . .

والليلة قررت أن أتجول مثل أشياء المدينة . . وشلالها البشري الهادر المختلط برؤوس الناس . . أناس تنام وتصحو بلا تفكير أو مبالاة، وحَدُّ الموت يحصد فيها، والبشرية عبثاً تكترث .

صوت الهاتف يرن . . ويرن . . إنه لك يا جورج وأحسدك أحسدك أن في المدينة من يسأل عنك، وتهرع بصدرك البارد العاري تتحدث :

ـ نعم . . إنها هنا .

ـ هه مَن يسأل عني ولا أحدَ يعرفني في المدينة؟ لكن لا شك أن البروفسور «أندي» الذي تركت له خبراً عند مديرة السكن ليتصل بي عند جورج إن تذكرني . . لا شك أن ضميره يؤنبه . . أُمسكُ السماعة بيد مرتجفة، وأسمع صوتاً بعيداً . . أُردد : لا شك أنه ندم على نومه المفاجىء أثناء التجربة، وعدم سماعه لحديثي، وأسمع الصوت من بعيد : هه أتحدث بالإنجليزية ها . . لكن الصوت عربي . . عربي . إنه أخي . . أخي . . هل تذكّرني؟ ها هو من بعيد يهاتفني . . لا شك أن العائلة قد افتقدتني . . أو ندمت على رحيلي . . لكن بعد سنوات . .

ـ اتصلنا بالسكن ولم نجدك، ثم أعطوني هذا الرقم . .

وأندم من أعماقي على سفري من بلدي . . ثم أسمع صوته مختلطاً بصوت زوجته المغناج يقهقه عالياً . . أتذكّرُ كم كان

يُعنفني لمجرد محادثتي لرجل غريب أي حديث بريء.. وأُردد في سرّي: إنّه سيعنفني لعيشي مع رجل غريب.. على الأقل ستتحرك مشاعره ويهتم بأمري..

ـ رجاء أن تشحني لنا عشرة فساتين لزوجتي، وقمصان نوم، وملابس داخلية.. و.. نعم على ذوقك خليها تفرح شوية هنا البضاعة أصبحت عندنا مفقودة بعد منع الاستيراد، والوضع صعب جداً لا يطاق».

تنهار السماعة من يدي.. صوته يختنق.. بل صوتي.. أرتدي ملابسي.. وأخرج. لن أغرق مع شلال المدينة أو العالم.. الجحيم هم الآخرون.. وداعاً يا لعنات الشرق، وتحلل الغرب، وذبح الشرق، وبرودة الغرب.. إني أبحث عن فجر أبيض.. الرجل الأمريكي يحدق في وجهي ببرود عجيب ويدير رأسه.

أخرج وسط الليل.. وسط أشجار الدلب الطويلة.. أغرق في الممرات المعتمة.. أتحداها.. الرابعة صباحاً.. لن يضمخوني بلعناتهم ووحلهم.. أسير في الشوارع.. البرد قارس، والمسافة طويلة.. أمد يدي إلى حقيبتي، أخرج أعواد كبريت.. أتذكر قصة «بائعة الكبريت».. أضيء عود ثقاب.. أُدفأ أصابعي المجمدة.. أهرول.. الفجر يطل قليلاً قليلاً.. أتنفس الصبح.. السماء تثلج.. الثلج يتراكم.. أين أنت أيها

الحنـان . . أين أنت أيهـا الحب الصـادق . . الثلج يندف أكثر فأكثر . . أرى أمامي مدينة بيضاء ناصعة . . وفجر أبيض ناصع . . أوراقي القديمة أمزقها . . وأبدأ بيوم آخر جديد . .

الشقة المفقودة

الليل حكايات من الصقيع تجمد الأصابع، سلاسل البرد تحيط بالمدينة تسوّرها، أبي جسد مهترىء يرتجف في العراء مع بقايا الأشياء في بيتنا، لولا حديثه الصامت والدمعة التي تنزل بين دقيقة وأخرى فأظنها بعض الندى وقد التصق وجهه ببعض الأشياء العتيقة من الأمتعة:

ـ هل وجدتِها يا ابنتي؟

ـ وأرسم على وجهي ملايين التعابير لتمّحي خيبتي، وأقلّب وجهي مئات المرات، ثم أردد: لا لم أجدها.

منذ الصباح وأنا أجاوره في الشاحنة التي توسّلَ إلى صاحبها أن ينقلنا إلى مكانٍ ما بحثاً عن شقة جديدة بعدما جن جنون مالك البيت وصاح بنا: اسمعوا: بيتي ليس مأوى للعجزة، والأسعار كلها ارتفعت إلاّ إيجار هذا البيت اللعين.. تدفعون سبعين ديناراً أو ترحلون؟!

ـ فتح أبي فمه.. ابتلع ريقه ثم تلعثم: مِنْ عشرين ديناراً إلى سبعين؟

ـ إن لم يعجبكم السعر ارحلوا..

ـ وابنتي : تمتم أبي بذل كبير؟

ـ وبناتي، صاح المالك : من يطعمهن ويكسوهن ويصرف عليهن؟ والجامعة ومتطلباتها؟

وكاد أبي يردد : لكن ابنتي بلا جامعة، ولا عطور، ولا يوجد لها حتى مكان كخادمة بعدما طردها أرباب العمل حينما رفضت أن يستباح جسدها في مدينة عز عليها الصدق!

ـ اسمع، هذا آخر إنذار لكما في نهاية الشهر إن لم ترحلا سأخرجكما بالقوة. وخرج مالك البيت صافقاً الباب في وجهينا.. وانحنيت على وجه أبي ألملم الصفعات المتناثرة بينما كان يتحدث :

أقسم لك أن أباه كان عاملاً في بيارات جدي، وأنني مراراً شاهدته يزحف بين أشجار البرتقال مهلهل الثياب.. اسمعي يا خضرة، لو كان من يطردني الآن يهودياً لما تألمت.. لو كان من يطردني أجنبياً لما بكيت، أمّا ابن بلدي، أمّا مَنْ تقاسمنا معاً رغيف خبز واحد، أمّا وأمّا.. ثم أجهش في البكاء.. وشعرت أن صدري لا يتسع لهذا الرأس الكليل.

صمتُّ ثم قلتُ له : اسمع يا أبي، سأرجع للعمل كخادمة وأساعدك، أمّا معاش التقاعد الذي تتقاضاه من حراسة المقبرة تقسمه مناصفة ثلاثون ديناراً لنا وثلاثون أجرة لبيت آخر.

كان البيت عبارة عن غرفة ضيقة مهلهلة الجدران والنوافذ، بعضها مغطى بالزجاج العتيق، والآخر بأكياس النايلون التي تحاول عبثاً أن تحجب البرد عنا، وكان أبي قد عمل حارساً للمقبرة بعد وفاة أمي ودفنها بها، فلما أصابه الشلل أُحيل على التقاعد وانزوى في البيت يحلم بشبح أمي مردداً: كانت دوماً خائفة تحلم بالرجوع إلى الوطن.. وظللت أقيم على قبرها مشتتاً بين صور الوطن التي بدأت تصير حلماً يراودنا وبين الواقع التعيس الذي نحياه.

طرقنا الباب الأول بحثاً عن شقة، أطلت امرأة تنضح شبقاً بقميص نومها الشفاف..

- هل عندكم بيت للإيجار؟

- لمن؟ قالت بتكاسل شديد.

- لي ولأبي.

وبلهجة متعجرفة أجابت: لدينا بيت واحد عبارة عن تسوية بمائة دينار. لملمتُ أذيال الخيبة وانزلقت من على الدرج إلى حيث يجلس أبي بين الأغراض، وسمعته يسعل بصوت أبح. قرأ وجهي وفهم الرد.

طرقت الباب الثاني.. أطل المالك بنظرات وقحة.. تكررت الحكاية.. دخلنا بيوتاً أشبه ما تكون بجحور فئران..

كانت تنغل بالناس.. رجال ونساء وأطفال.. هموم تنبعث من بين الشقوق.. في إحدى الحارات العتيقة لمحت أعمىً يسير بين القاذورات يحمد الله، بينما الفئران تقفز من حوله عابثةً بثوبه.

تساءلت: علامَ يحمد الله؟ على نعمه أم لأنه لا يرى كل هذه البشاعة؟. برد المدينة يزداد، والشمس كاذبة تبشر بنهار مشرق وسط الصقيع.. إنه البيت العاشر أو الحادي عشر الذي ندخله عبثاً. تساءلت: لماذا يتكاثر الناس في ظروف قاسية كهذه؟ بماذا يحلمون؟ أهي مجرد أرغفة تتطاير في الأزقة؟

كان أبي قد اتفق مع صاحب الشاحنة الصغيرة أن يدفع له كل ما معنا مقابل أن يصحبنا بقية النهار بحثاً عن بيت مناسب أمام وقاحة المالك الذي قطع عنا الماء والكهرباء لمدة أسبوع، ثم فاجأنا في الصباح عندما ركل الباب بقدمه وفتحه، وطلب من العامل الذي معه أن يفك باب البيت ويتركنا نهبة للبرد والصقيع.. آنذاك.. حزمنا أمتعتنا وحاجياتنا.. خرجنا بحثاً عن شقة تأوينا قبل أن يفغر المساء فمه ويفح بوجهينا.

أشفق السائق علينا من هذا المشوار البعيد، وقرر أن يبحث لنا هو عن شقة. اتكأ أبي على قارعة الطريق.. جلست قربه.. لا حظت أنه ينفث دماء.. غاب السائق لساعات ثم جاء

مستبشراً: وجدت لكما مأوى.. هيا اصعدا. ساعدني في رفع أبي.. حمدت الله أننا لن ننام في العراء ولن يلسعنا البرد. لملمت أطراف الجريدة العتيقة التي كان أبي قد لف بها الرغيف زاده الأخير.. سارت بنا الشاحنة.. جميل أن يشعر الإنسان أن له بيتاً يأويه ويحميه من عراء الطريق حتى وإن كانت غرفة تنز رطوبة وتنمو على جدرانها الطحالب.. كنت أشجع أبي: لا تخشى شيئاً.. عندما نصل الغرفة سأرتبها وأجعلك تستريح، ثم أرتب بقية الأغراض.. سأعانقك الليلة. ظلت دمعة جامدة في زوايا عينيه.. وصلنا الحارة.. كانت مطفأة تفوح منها رائحة المجاري.. دخلت والسائق في الأزقة.. شعرت بأن هنالك كائنات غريبة تكاد تقفز في وجهينا.. دخلنا عبر حارات عفنة.. اقتربنا من باب نصف مهلهل كان صوت الوابور ينبعث منه.

طرق السائق الباب، أطلّ شاب في مقتبل العمر.

ـ ماذا تريد؟

ـ أليس البيت معروضاً للإيجار؟

ـ لكنني المستأجر الجديد.

ـ لا يعقل ذلك.. قبل ساعتين كنت هنا وتحدثت مع المالك حول استئجاره؟

ـ لكنني أتيت ودفعت له وسكنت!

ـ أين المالك؟

ركض السائق إلى بيت المالك يقرع بابه بشدة، أطلّ رجل غاضب بكرش متدلٍ:

ـ ماذا تريد؟ حشرج صوته.

ـ ألم تعدني بالبيت.. لقد ذهبت لإحضار المستأجرين وعدت لأجده مؤجراً!

ـ أجاب المالك بلا مبالاة: لقد دفع أجرة أكثر منك..!

ـ والوعد؟

ـ قهقه الرجل حتى كاد يقع أرضاً، ثم صاح: لكنه دفع أجرة أكثر منك.

ـ والوعد؟

صفق الباب بوجهينا، وانسللت والسائق عبر الأزقة العفنة، بينما ظل صوته يردد في أذني (جاء من دفع أكثر منك).. تذكرت حكاية أبي حين كان ببلدته القديمة وأراد توسيع بياراته، فاتفق مع جار على شراء أرضه، لكنه تفاجأ بالجار وقد باعها لغرباء ونكث بالوعد بعدما أعاد لأبي العربون.. وفي المساء كان جوار بياراته أجانب من جنسيات مختلفة، وحين ذهب معاتباً جاره وقف يردد: «جاء من دفع أكثر منك».

هرولنا إلى الشاحنة.. كيف سأقابل أبي؟ إنها العاشرة ليلاً من ليالي الشتاء، قفزت إليه أبحث عنه وسط الأشياء، لم أسمع تنفسه، كان جامداً.. هل جمّده البرد أم الخوف؟ لا أدري! لكنه

ما زال ممسكاً بالجريدة التي يلف بها الرغيف ليكون عشاءنا.

مددت يدي أسحب منه الرغيف.. على الجريدة قرأت عنواناً لمسؤول ما: [بيتي هو بيت اللاجئين الفلسطينيين حتى يرجعوا...]. من خلف الليل سمعت الرياح تحمل أصواتاً وهمهمات.. وكلمات كثيرة ترن في رأسي [الوعد.. جاء من يدفع أكثر منك.. بيتي مفتوح لهم حتى يرجعوا...]

تطلعت إلى السائق: لا حاجة للبحث عن بيت أكثر بعد الآن.. لقد رحل أبي إلى حيث بيته الأول والأخير.. مَنْ يُطرَد من داره لا دار له إلّا هناك حيث اختار أبي حارساً للمقبرة حتى يوم البعث.

ضغطت بأصابعي على كلمات الجريدة المهترئة..!!

الرغيف

تلك الكوة ما زلت أذكرها تماماً.. الحفرة السوداء وحولها برميل من السولار وتنين أسود اللون يتصل بخرطوم طويل ينفث الشرر على الفرن، فيشتعل بيت النار. كنت للحظات أطمأن إليها، وأستأنس بلونها الوردي وكأنها شعلة من النور تضيء جدران الفرن الأسود الأشبه بسجن مقيت، بينما تتدلى بيوت العناكب على الجدران ملطخة بالسناج والطحين معاً..

كانت شبابيك الفرن محاطة بشبك حديدي ضيق، وكانت هنالك كوة وحيدة تطل على الشارع الجانبي يتلصص الأولاد منها ناظرين إلينا مثل فئران محتبسة. وكان أسوأ ما في الفرن بيت النار، فهو بؤرة للاشتعال خطرة، لذلك لم يجرؤ أحد منا على الاقتراب منه ما عدا عواد الرجل الطويل ذو الرجل المشوهة بسبب شلل الأطفال الذي أصابه في الطفولة مما اضطر أهله لتركيب أسياخ حديدية له تعينه على السير البطيء.. كان يقف كخازن جهنم، يلقم النار أرغفة الخبز، ثم يخرجها حارة شهية، أما الخبز السميك فقد كان يملأ فمه بالماء، ويقوم ببخه على الأرغفة.

مضت الأيام رتيبة وسط هذا الحر الشديد.. كان الشارع

المـار أمام الفرن ينتهي ببناء سجن المدينة، مما يزيد من جو الكآبة في الفرن، وكان عواد كثير الصمت لا يتحدث إلينا، وفي أوقات الفراغ يحمل كتاباً يقرأ به ويعيش في عالم بعيد.

ما أن يأتي الأطفال يتطلعون إلينا عبر الكوة حتى نشعر كأن الشمس قد حلّت علينـا.. نتفـاءل بوجـودهم.. ونشعـر كأن وراءهم حكايات كثيرة لم ينشروها بعد. كان الفرن يُموّل السجن بالخبز لا سيما أن المالك الحقيقي له هو مدير السجن، وكثيراً ما كان يزيد الطلبات للسجن، وتباع للآخرين دون أن يفطن أحد إلى أنـه يثري ويشيد العمارات من وراء الأرغفة، بينما يتضور السجناء جوعاً.. وكان يشيد بنايات حجرية بيضاء يؤجرها للسياح وللأجانب، لكنهم جميعاً كانوا يدعون بأنها حارة مقيتة دون أن يدركوا السبب الحقيقي!

كان الأطفـال يقـومـون بنقـل رسـالات شفـوية بيننا وبين المساجين الذين يتجرأون أحياناً فيطلون من كوة صغيرة عبر سور السجن.. كانت الأحوال عندهم لا تطاق.. فكّرنا بوسيلة جديّة للاتصال بهم، لكن الحراسات كانت مشددة.

في أحـد الأيام كنا نقف أمام الفرن، بينما يقف الحارس منتصبـاً أمـام باب السجن عندما عبرت مجموعة جرذان معفرة بالـطحين من أمـامـه بشكل مضحك، وكان حجم الجرذ كبيراً

بحجم القط . . هرولت تلك الجـرذان تجاهه، وعبرت من بين رجليه مما أفزعه وجعله يصيح : إنها قطط شرسة . . ثم انطلقت إلى شوارع المدينة حرة طليقة . . وغرقنا نحن في الضحك .

أخيراً اهتدينا لفكرة للاتصال بالمساجين، وذلك عن طريق غرس أوراق مكتوبة في الخبز السميك مغلّفة بقطعة صغيرة من الصفيح تحميهـا من الحـرارة الـلاهبة . . وطلبنا منهم الرد عبر أكياس القمـح التي يقـومـون أحيانـاً بتنقيبها وإرسالها للفرن . نجحت الفكرة وجاء صديقي عواد يرقص طرباً . . لقد وصلتهم الرسالة وها هو ردها . . تجمعنا نقرأ حروفهم وكلماتهم . . وأغلقنا الكوة كي لا يتلصص الأطفال ويعرفوا ما يجري .

وأخذت رسائل كثيرة تتبادل بيننا، بينما ازدادت أبنية مدير السجن في المدينة . . وازدادت السرقات . . وابتدأ صوت الجوع يصل أسوار السجن، وزاد عدد المعتقلين، مما زاد في عملنا، وازداد عواد إرهـاقاً . . لكنه كان يقرأ أكثر . . وللحظات يختلس رسائل من بين الكتب ويدسها في الأرغفة التي صارت توزع أكثر في المدينة .

ازدادت الفوضى في المدينة أمام ثورة الجوع، وقيل : إن المفوض العام كان يتناول طعامه في أحد المطاعم التي نزودها بالخبز عندما غص بقطعة من القصدير، ولعن سوء التصنيع دون

أن يفطن إلى ما بها، ثم تمتم ضاحكاً لعل الورقة تحمل كلمات الحظ التي تدس في بعض الحلويات . .

تفشت في المدينة الشائعات، وابتدأت جماعات أخرى توزع مناشير بشكل أفضل بحيث دخلت إلى كل البيوت محرضة على الثورة . . وكنا نتخيل حجم الجوع الذي يستولي على المدينة، والوجوه الملوحة التي تقف خلال الكوة مع الأطفال تتوسل إلينا أن نعطيها بعض الأرغفة .

في صباح أحد الأيام أتاني عواد مشرقاً . . وكان لا يغير ثوبه الأسود مطلقاً منذ خرج من السجن وقرر الالتحاق بالفرن، والذي كنت أعتبره سجن أصغر، ومن نوع آخر . . قال وقد ظهرت مزقة واضحة في الثوب عرّت فخذيه السمراوين : هل تصدق أن الثوب قد اهترأ بعد سنوات من اللبس المتواصل؟

ـ نظرت إليه باستغراب : هذا أمرٌ طبيعي .

ـ قال : هل تدرك معنى ذلك؟

ـ أطرقت .

ـ قال : إن الجسد قد تمدد، واللحم يود الخروج من أسره .

ـ ماذا تقصد؟

ـ يجب أن نخرج م هنا . . وخروجنا يعني أمراً مهماً للمدينة، فأنا أسمع فحيح ا رع يمر في الليل بباب الفرن يشبه فحيح

التنين الذي نوقد به النار. . في الليل حلمت بأن نار التنين التي كنا نشوي بها الأرغفة للناس قد امتدت للمدينة وأحرقتها حتى صارت هشيماً ثم نبتت سنابل خضراء تارة أخرى.

ـ قلت له: أوضح أكثر.

ـ قال: لقد استنفدنا أمر الفرن. . يجب إحراقه قبل أن يحرقونا ونُقدم قرباناً على موائد السيد المدير.

ـ والمساجين؟ وأهل المدينة؟

ـ نحرق السجن معنا. . نسمع قرع أبواب الزنازين ممتزجاً بألسنة النار. . سنخرج من هنا بعد الآن أحياءً أو أمواتاً. . ها قد جعلنا من الرغيف ثورة. . أطعمنا البطون الخاوية ثم حركنا فكرها، لا شك أنهم الآن عطاش لمخلّصين.

ـ لكنك كنت طوال الوقت طليقاً خارج السجن، ومع ذلك لم تغادر الفرن بمحض إرادتك! هل تعتقد بأن السجن مجرد أسوار وزنازين؟

مضى الليل طويلاً. . مع تباشير الفجر والحارس نصف نائم، أمسكنا بالتنين الناري. . وجهناه لأكياس الطحين. . شبت النار ملعلعة حتى عنان السماء، توهج الفرن. . تصايح السجناء. . عم الحريق. . دبت الفوضى. . اضطر الحراس لفتح أبواب السجن. . ساد الهرج والمرج. . وخرج المساجين. أمّا عواد فقد لحق التنين به، وابتدأت النار تلتهم رجله

المعطوبة.. عندما حملوه على نقالة المستشفى كان نصف صاحٍ وهو يبتسم بمرارة.. أما كوة السجن، فقد شاهدنا أيدي الأطفال تكسر زجاجها بقبضاتها الصغيرة وتطل في عينيها ذعر وتساؤلات.

خارج السجن كانت آلاف الوجوه البشرية جائعة تنتظر الرغيف.. وتنظر للفرن المحترق، لكن في فكرها أشياء كثيرة لعلها ستصنع أرغفة أخرى!؟

القناع

الليل يجثم كابوساً على صدر المدينة.. هاتفي أخرس، صامت، عبثاً أحاول.. التواصل مع العالم.. أصل أذني بسماعتي (ستيريو) لأوهم ذاتي أن أصحابي اتصلوا، ولم أجب هرباً من الليل البارد والثرثرة الفارغة، الليل وعمري وأنا أهرب من شارع لآخر ومن مدينة لأخرى لكن الأشياء ما زالت ضائعة مني، يجب أن أصلك أيهذا الرجل الذي أسرني، أيهذا الإنسان الذي أحمل له في أعماقي حكايات لم تنته، ها هي المدينة تغرق في خدرها الليلي وأنا أبحث عن طريق خلاصي، منذ زمن وأنا أبحث عن ذاتي في عالم لم أختطه لنفسي.. عالم برجوازي مخملي.. وجوه محنطة باردة. خالتي تغرقني بعالمها الخاص (الأخبار ممنوعة.. الكتب الجادة ممنوعة).. حياتي رقص صامت على بحر جليدي.. أتحرك كدمية، وأنام كدمية وسط أخبار خالتي التي تتصدر صفحة المجتمع.. عبثاً تحاول تدجيني أمام محاولتي للبحث عن ذاتي وحقيقتي، وكنت أحاول الخروج من صدفتي كسلحفاة ميتة.. أتعامل مع أصدقائها بمنتهى البرود بما يليق مع سهراتهم الباهتة، حاولت تخديري بالسفر من

مدينة إلى أخرى، وأحاطتني بكل أسباب الثراء لكي أنسى، لكني كنت مثل قطة تتوق للانفلات والرحيل إلى شارع يكلله المطر. . أغرق في برك الطين لعَلّي أقرأ صورتي الحقيقية. منذ الصباح وأنا أدور على ذاتي مثل حشرة وقعت في الفخ بانتظار المساء لأمزق قناعي. . آه لماذا أشعر بخدر كلما ذكرت كلمة القناع؟

كنت أسير في شوارع روما عندما شاهدت تجمع السياح أمام متجر كبير يبيع أقنعة مختلفة. . لاحظت أن كل إنسان يختار قناعاً يناسبه. . فذاك الأشبه بديك حبش يرتدي قناع الطاووس، وتلك ترتدي قناع النعامة وجسدها يظهر بينما رأسها الصغير مختفٍ، وذاك قناع الذئب. . و. . و. .

وقفت أبحث عن قناعي. . جرّبتُ أقنعة كثيرة، ثم اهتديت إلى قناع على شكل وجه كان نصفه أبيض والنصف الآخر أسود، وثمة خيط يفصل بينهما. . وضعته على وجهي. . تطلعت في المرآة. . شعرت وكأنني أرى ذاتي، فأنا أعيش حياة مزدوجة نصفها أبيض ظاهر للعيان يبرق للناس، والنصف الآخر أسود غامض في أعماقي.

منذ اقتنيته وأنا أشعر بخدر في نصف وجهي وكأنني إنسانة ذاهلة. . أسير في شوارع المدينة هائمة (ثمة أمر يلوح لي في

البعيد، ثمة أصوات غامضة تناديني). حدّثت خالتي بذلك، لكنها سخرت مني وقالت إنني أعيش في وهم الماضي، ثم عرضتني على أشهر طبيب نفساني، فأشار إلى أنها أوهام سرعان ما تنقضي، وعادت لزجّي في حفلات برجوازية بحثاً عن عريس يملأ عليّ نصف حياتي، إلّا أنني بقيت ساهمة.

أذكر يوم دُعيت إلى معرض صديقة خالتي الرسامة كيف دخلت وسط الأضواء الساطعة واللوحات المتفرقة.. كانت الصالة تغص بنساء متصابيات يتحلقن حول شاعر يُتحفهن بأعذب الكلمات والأشعار، وعجبت للفن الذي يُسخر لمجتمع كهذا. أليس الفن رسالة نبيلة؟ ثم انتقلت إلى اللوحات. كانت ثمة أشكال وبدايات طفولية، مع أن الصحف المحلية غطت الخبر بشكل كبير. وأدركتُ أن الرسم بات مجرد مخرج لنساء هذه الطبقة، فالفنان الأصيل تحرقه الأضواء الساطعة وبِصَمتٍ قدسي يبحث عن خلاصه، ومع ذلك تمنيت لو أجد طريق خلاصي.

اقتربت من لوحة كانت تسمى «القناع».. تفرّستُ فيها.. لم أجد فيها لا قناعاً ولا غيره.. كدت أصرخ بالرسامة:
سيدتي، لماذا لا تأتين بإطار خشبي وتحيطين به ثلة النسوة اللواتي أمامك فتخرجين بأجمل لوحة مبدعة ناطقة بدلاً من لعبة الألوان التي لم تتقنيها بعد؟.. بعد خروج المدعوين من القاعة،

وقفت صامتة أتأمل ما حولي، ولمحت دمعة محتبسة في عين الرسامة تعبّر عن خواء أيامها وحياتها مثل خواء معرضها إلاّ مِنْ مجرد فقاعات.. ألعاب نارية أضاءت لثوانٍ ثم اختفت.. لوحات باهتة مسعّرة بمئات الدنانير، لا تحمل معنى سوى معاناة امرأة وسط جدران واهية.

منذ الصباح وأنا أدور على ذاتي مثل حشرة، وأرقب المارة في شوارع المدينة وأغبطهم على وجود لحظات حميمة في حياتهم: طفل يحمل أرغفة ساخنة بانتظار أن يعبر الشارع لا بد أن أُمه بانتظاره.. بائع يجر عربة الخضار.. امرأة وأطفالها يقفون أمام البائع.. وأنا في سيارتي المعلبة.. وحاجز زجاجي يفصل بيني وبين الناس.. أدرت مفتاح المسجل في السيارة، ولحسن حظي أو لسوئه كانت المسجلة بلا شريط، فتحت المذياع بحثاً عن محطة أستمع إليها ريثما أجد الشريط، وإذا بصوتٍ يشدني: صرح ناطق عسكري بما يلي: قامت ثُلةٌ من شبابنا الأبطال بمهاجمة سيارة للعدو في قرية صور باهر، وقد استشهد نتيجة لذلك ثلاثة من أبطالنا، كما تم اعتقال فاطمة أحمد من أهالي المنطقة، وتبلغ من العمر عشرين عاماً).. أدرت المفتاح وسمعت المسجل، كانت أغنية... (Love Story).. حاولت أن أنسى الخبر الذي سمعت، لكن ثمة أمرٌ يتحرك في أعماقي.. دخلت بيت خالتي البارد.. الأشياء صامتة خرساء.. الأثاث بارد

منل بيت الموتى . . خالتي بملابس الدانتيل . . خاتمها الماسي يلوح في وجهي مهدداً إياي بزوال النعم من حولي إن أنا تمردت . . البيانو صامت بلا عزف . . الستائر مدلاة ثقيلة . . جلست أرقب المساء حيث قررت أن أحزم أمري ،خلاصاً من رتابة أيامي . . قررت خالتي أن أعمل بمدرسة لتعليم الأطفال تنفيساً عن ضيقي ، والتحقت بالمدرسة . . كان الأطفال يأتون بسيارات فارهة ، وثمة حراس كانوا بانتظارهم ، وكنت أنظر إليهم كمخلوقات صغيرة أضيع بينها . ظلت حياتي رتيبة حتى كان يوم دعتني فيه المديرة إلى مكتبها . . ظننت أمراً وقلت في نفسي : لعلها خالتي تلك التي تغدق الهدايا على الناظرة ، لكن ما أن دخلت المكتب حتى شاهدت شاباً ملتحياً قدمته لي : الأستاذ رامي يعمل باحثاً في الجامعة ، يريد دراسة عينة من المرضى النفسيين ، ومحاولة البحث عن معامل الارتباط بين الأمراض النفسية والحياة المرفهة ، وأريدك أن تساعديه في البحث . . تطلعت إليه ، شعرت براحة نفسية ، ووافقت فوراً ، ثم ابتدأنا العمل ، اصطحبت مجموعة من طلبتي واتجهنا لمستشفى الأمراض النفسية ، كنت خائفة قلقة ، إذ كان المبنى يبعث على الاكتئاب ، يلفعه صمت خريفي حزين ، لكن ما أن عبرنا الصالة حتى حسبت ذاتي في فندق كبير ، لدرجة أني كدت أسأل : أين حقائبي ؟ . . تجولنا في الأقسام . . رافقتنا رئيسة القسم وهي

تشرح لنا، صعدنا للطابق الثاني «مدينة متكاملة». . ثمة نبض جميل. . شعرت بهدوء نفسي لم أشعر به في حياتي، تعجبت كيف كنت خائفة من أن يقفز أحدهم أمامي صارخاً. . كانوا يتناثرون مثل أزهار الطرقات. . حزمة زهر منفلتة. . شباب ينامون على المقاعد دون أن يأبه بهم أحد. . لم أجد فرقاً كبيراً بين ما يجري هنا وما يجري خلف السور في المدينة الكبرى، لا بل إنني شعرت أن كل وجه هنا له مثيله في مدينتي، لكن لماذا الازدواجية، هل عادت لي لعنة القناع؟

فجأة، سمعتُ الطلبة يصرخون وهم يلتفّون حول رجل حليق الرأس، خلاسي البشرة، أزرق العينين. . كان يهمهم بكلمات غامضة مبهمة. . تدخّلت المشرفة قائلة: إنه أخرس. . وقفت أتأمله. . ما أجمله!. . ثمة أشياء ينطق بها وجهه، كَتَبَ ورقة صغيرة ودسّها في يدي كانت تحمل بضع حروف، حاولت فكها (الحاء. . الباء. . الراء). . أحرف مختلطة صغت منها كلمات (حرب. . بحر. . حبر. . حب. .). . احتفظت بالورقة واتجهنا لأقسام أخرى وسط نظراته الحزينة التي كانت ترافقنا.

كان هنالك قسم للأشغال اليدوية. . ثمة رجال تحلقوا يصنعون الأزهار الصناعية. . تساءلت في نفسي: لماذا لا يعلمونهم زراعة الأزهار الحقيقية بدلاً من المزيفة. . في الزاوية شخص وحيد يصنع شيئاً ما أسرع طلَبَتي إليه ثم صاحوا: إنه

يتحدث اللغة الفرنسية، وكأنهم يستنجدون بي، فهرولت إليه.. أخفى ما يصنعه عني.. ابتدأنا الحديث.. تلبّسني فضول لمعرفة ما بين يديه لكنّ لسانه انطلق على سجيته.. تحدثنا بأشياء جميلة صادقة.. نظراته العميقة كانت تسحبني لعالم جميل خرافي.. صوته كان يخدرني، ثم نظرت إلى ما يصنعه، وذهلت، كدت أصرخ.. كان يصنع قناعاً أشبه ما يكون بقناعي.. يا إلهي، هل ثمة من سرق القناع من غرفتي؟ هل هو توأم لقناعي.. إنه قناع وجه نصفه أبيض والنصف الآخر أسود يفصل بينهما خط واهٍ طويل. حاولت أن أستفسر منه شيئاً: ما الذي أوصل القناع لروما؟ ما الذي أتى بالقناع إلى هنا؟ أسئلة غامضة لم أستطع الإجابة عليها.

خرجت من المبنى فرحة، أمر ما بات يشغلني وأنا خارجة.. لحق بي ثم دس في يدي زهرة صبّار غريبة، زرعتها تحت نافذتي، كانت تنمو بوحشية.. بنفس الوحشية التي تنمو فيها الأشياء الغامضة في نفسي، لحظة وصلت غرفتي تطلعت إلى قناعي.. كان كما هو.. جلست أستعيد الأشياء وأحدق في الغرفة.. لا لم أُخطىء أبداً.. إنه نفس القناع.

عندما دخلت مدينتي شعرت بذاتي غريبة.. هجرت أصحابي.. فارقت المقهى المعلّب الذي كان ملتقى الفئة المثقفة.. كراسيّه الحمراء.. ستائره المدلاة.. المنبر الذي

كان يعتليه من يود الحديث.. نادل المقهى الذي كنت أدعوه فرجيل في «جحيم دانتي»، وبدأت أرحل إلى هناك إلى خلف السور في مستشفى الأمراض النفسية.. أتسلل إليهم في الليل حيث الهواء الطلق وعناقيد المصطكى المتدلية، وقناديل الليل.. بحثت عن صديقي وكان اسمه عبد الإله.. آه أيهذا الإنسان الذي وجدت فيه أعماقي الحقيقة، لكن لماذا يحبسونه هناك ويدّعون أنه مريض نفسياً؟ والأخرس الذي كان يتابعنا، وليالي الحب التي امتدت بيننا.. كنت أرحل إليهم مثل امرأة مخدرة ما أن تغفو خالتي وتستسلم لأحلامها الوردية حتى أنسل على رؤوس أصابعي أشق دربي.. أتطلع خلفي إلى مدينتي النائمة.. وأرحل هناك ثم أتخيل شبح خالتي كيف سيطلّ من بين الستائر صارخة: مجنونة تعشق رجلاً مجنوناً.. ؟

لكنني وجدت ذاتي هنا.. بدأت أراقب الأمور.. أليست المدينة الكبرى تغص بمئات الشواذ دون أن يدّعي أحد أنهم مرضى نفسيون؟ وجدت لهم مجلة داخل المستشفى تدعى «مجلة الرحمة».. كانوا يكتبون فيها بصدق، بعكس الصحف التي تلفق الأخبار الكاذبة.

جمعتني وإياهم مائدة غذاء واحدة.. تحلقوا حولها مثل نوارس البحر الحزينة الخاشعة.. ابتدأوا بالتهام الطعام وكأنه المتعة الحقيقية الوحيدة الباقية لهم في هذا القفار.. عبد الإله

لم يمد يده.. كان صامتاً.. والأخرس مد يده لتناول تفاحة تدحرجت من يده شاهدت فيها سخرية العالم لحظة سقطت التفاحة الأولى في حياة الإنسان. وقف أحدهم يلقي خطبة ذكّرني بخطباء حديقة «الهايد بارك» بلندن.. تحدث عن الإنسان المكسور.. تساءل عن حقيقة الحياة.. عن العذاب والرحيل المتواصل من عمرٍ لآخر مثل لآلىء ماء تنزلق على أيامنا، وشبح الموت الذي يتربص بنا.. أطرقوا رؤوسهم واستمعوا بحزن، ثم تحدث عن الحرية والبحث عن الذات.. كدت أصرخ به منذ زمن وأنا أبحث عن ذاتي، منذ زمن وأنا أحاول معرفة انتمائي الحقيقي، كل الذي أعرفه من خالتي أنني أتيت إلى الحياة في ليلة ماطرة جرّح الثلج بها أكف المقاتلين الذين كانوا يدافعون عن القرية أمام المغتصبين، وكانت أمّي تعاني المخاض في كوخ حقير، تتمزق بين آلامها وجوعها وبين طلقات الرصاص الطائشة، وأنا أعتصم في رحم أمي لعلي أدركت باللاوعي أن الرحم أكثر أماناً من الحياة، ثم سحبوني عنوة من خاصرتها.. دمّرت حياتها وخرجت وحيدة لا أم ترعاني، واستقبلتني خالتي التي كانت تعيش على الجانب الآخر من النهر بعد ما تزوّجت من رجل ثري، وكانت امرأة عقيمة وجدت بي ضالتها المنشودة، وحاولت أن تنسيني مدينتي وأمي ومولدي.. وظل بي دوماً حنين ونبض غامض في أعماقي، ولم أجد ذاتي في كل ما يحيطني من

ثراء أو أشياء أخرى. تذكرت يوم كنت أجلس في المقهى وقف رجلٌ كان قد خرج للتو من المدينة المغتصبة.. تحدث عن المدينةواشتعالها واعتقاله، شعرنا أنه يرحل بنا إلى عالم وردي يضج بالحرارة، ثم شعرنا بأن هنالك عيوناً خفية ترقبنا، ودخل شخص غامض إلى المقهى أسكت الرجل بنظراته، وصمت الجميع.

عبد الإله تطلع إليّ.. خرجنا إلى الفناء.. أشعل المذياع.. سمعنا أخباراً مختلفة.. إنهم يتحركون خلف النهر.. وكأن الوأد الذي أصابهم قد ثار مثل بركان.. ثمة عابر عبر هناك إلى ما وراء النهر يعبث بالقبور ويخرج الموتى.. إنهم يحملون الحجارة.. يناضلون.. يتحركون.

وسمعت الأخرس يهمهم فرحاً.. تمنيت لو أعرف سره.. لكني قلت: لماذا أدعوه الأخرس؟ منذ متى كان صمت الإنسان يعني خرساً.. ألسنا جميعاً خرساناً أمام الصمت عن الحقيقة؟ هل مجرد نطق الأبجدية يعني الفصاحة.. امتدت ليالينا.. صارت تنام المدينة شهراً ونحن نستمع للأخبار.. نبض غامض يدعونا لترك المدينة والهرب.. وقررت النظر في ملفاتهم بحجة البحث العلمي.. تسللت إلى قسم الملفات.. فتحت الملف وابتدأت أقرأ عبد الإله من مواليد يافا ١٩٤٠.. قتل اليهود أباه أمام عينه ثم هدموا الدار.. صاحت الأم: اتهموها بالجنون..

كبر انضم إلى سلك المناضلين.. اعتقله اليهود وعذبوه، ثم رحل إلى أمريكا.. تابع دراسته هناك.. عمل في معهد الأبحاث.. تزوج أميركية.. حصل على الجنسية.. كان يعيش الضياع والتأرجح بين خط الحقيقة الواهي.. حاول الاتصال مع المناضلين.. أعيد إلى هنا مجنوناً!

وصُدِمت.. إذن عبد الإله ليس بمجنون.. من يبحث عن وطنه عاقل كبير.. بحثت عن ملف الأخرس.. مصطفى من مناضلي لبنان، هاجر مع أسرته سنة ١٩٤٨م، ثم نزح سنة ١٩٦٧م.. فسكن في جنوب لبنان.. اكتشف بعض الخيوط التي تحاك حول بيروت، وحذر من وقوع مجزرة صبرا وشاتيلا.. كاد يوصل صوته للمسؤولين، ولكنه اعتقل ليلتها وأُعلن أنه معتوه مصابٌ بالخرس.

يا إلهي.. أكاد أنضم إلى هذه الفئة.. ما هذه الحقائق.. حملت الملفّين وهربت.. هرولت خارجة.. ثمة رجل لحق بي.. أمسك الملفات ومزقها بوحشية.. ثم طردني صائحاً: تخطيّت السور.. سمعت صياحاً: إنها مجنونة أخرى، ثمة عيون غامضة ترقبني.. لمحت من بينها عيون عبد الإله.. والأخرس.

هرولت حزينة وخائفة.. لا بل فرحة.. فرحة جداً.. الليل يتفتح مثل حقل أزهار خرافية.. الأيام تصير أمامي بيضاء نقية..

الحقائق تنهال مثل شلال. وأنا أعبر السور قرأت نبضاً للحقيقة في عيني عبد الإله لم أقرأه من قبل.. حجر ماسي صافي يفجّر الحقيقة، اتصلت به.. تواعدنا سراً.. هذه المدينة الصغيرة لا يحرسها أحد، إذ مَن يحرس المجانين؟

وقفت أودع بيت خالتي.. خالتي تنام كدمية في سريرها.. تتنفس من منخريها ترفاً وحياةً مزيفة. مئات الأضواء تضيء مدينتي عبثاً.. اصطحبت القناع.. ثمة مدن جميلة تفتح أبوابها لنا.. ركبنا السيارة.. لآخر مرة سأركب سيارتي الفارهة.. هبطنا في طريق العارضة.. حشرات الليل تئز، رائحة السرو والصنوبر.. أضواء الأغوار تضيء.. تشتعل.. إني أنزلق وأنزلق.. ها هو الشارع ممتد طويل قرب القناة، ها هي من بعيد تلوح مدينة الكرامة.. إنها تكبر.. تصير عالماً يشع منه النور، يجتذب العالم.. أشعر بنقاء أبيض يغمرني.

ستستيقظ خالتي فزعة وتبحث عني.. مئات العرسان سيأكلون أصابعهم ندماً على رحيلي قبل الفوز بثروتي.. نصل النهر.. قامات القصب أمامنا.. عبد الإله يترجّل من السيارة، يخلع نعليه.. أنا ظمأى.. منذ زمن أشعر بعطش شديد، منذ زمن لم أرتوِ.. عبد الإله يمد يديه إلى النهر.. أصابع نبي عبر كفيه.. أرتوي.. أرتشف الماء قطرة فأخرى حتى الثمالة.. ثم ألثم كفيه.. ويشرب الأخرس الذي ينطق فرحاً.. عبد الإله

يصطحب القناع . . وأنا أصطحب قناعي . . نغسلهما بماء النهر . . يزول الخط الواهي بين نصفيهما . . يصير وجهاً أبيض .

إنها الأقنعة التي كنت أصنعها في المستشفى على شكل مدينتي عل أحداً يفهم قضيتي ويفهم أن الوجه لا يُفصل شطرين والقلب كذلك كنت أضع خطاً واهياً بينهما أبيعه للسياح الذين يظنونه مجرد زخرفة بلا معنى . . وكنت أجعل الفن ينطق ويعبر عن قضيتي وذاتي . . وجه حزين نصفه أبيض نابض والآخر مكلل بالسواد الفاحم؟! يردد عبد الإله . تطلعت إلى ذاتي . . ألست مقنعة مثله . . خالتي حاولت أن تدجنني في حياة فارهة، لكنني عجزت أن أنسى وطني وبيتي وكوخي الذي ولدت فيه . . كنت مشتتة إلى أيهما أنتمي : لدثار الثلج وبياضه أم لزخم الرصاص ولعلعته؟

تمتد أيادينا . . تتعانق . . عبد الإله يخرج جواز سفره الأمريكي ويمزقه . . كلنا نمزق أقنعتنا . . الأخرس ينطق بفصاحة . . من خلف النهر نسمع همهمات وأصوات . . أسمع صوت فأس يحفر في الأرض . . صوت امرأة تصرخ في الليل . . تطلق صرخة حادة وأسمع صوت طفلة وليدة . . إنه صوتي وولادتي الآن حيث الوطن الحقيقي .

ونعبر النهر . . نعبر النهر عبر الليل المضيء وسط أصواتهم

المتضـــافـرة . . أصـوات أطفـال الانتفـاضـة، لوحـة مستشفى المجانين التي كانت تلوّح تحت قنديل الليل الشاحب تتحرك . . يلهـو بهـا الهـواء تُشير إلى أية جهة عدا الدرب الحقيقية التي اخترقناها سوية .

منجعة الثورين

سواح . . أفواج حمام . . رؤوس بشرية مختلفة . . أسراب من البشر ما زالت أمامي تروح وتجيء، وأنا أسير معها مثل ببغاء محنط دُرِّبَ على فن الإلقاء، فوقف غريباً بينهم يشرح لهم عن الأماكن السياحية هنا وهناك .

مدن . . آثـار . . أطـلال . . بحار . . كلها أشياء ليست لي أبداً، مجرد غراب ناعق أو كروان يبكي المساء على ضياع أشياء كثيرة، وأبحث في الـوجـوه كلها أقلبها بحثاً عنك يا ميشيل . . مدينة فأخرى . . من روما إلى أثينا . . فينا . . أنتقل بحثاً عنك وعن رموز كثيرة، وأتحدث عن أطلال وفي نفسي حنين كبير إلى أن أعود هناك إلى يافا . . إلى الشاطىء العتيق . . أتحدث عن بيوت الناس العتيقة وقناديل الليل الساهرة .

حزينة أنا ووحيدة مثل آلهة بللها الصدى، فغرقت في زوايا بحر آسنة سفينة منسية في قاع بحر عميق من عمر ولّى . . آه وعينيك الوحشيتين ما زالتا تعششان في أعماقي . . تطاردني وسط براري النـدى على سياج أثيرية . . أركض هنـاك وتلحق بي . . ما زلنا نصعد كآلهتين وحيدتين على أدراج دلفي في اليونان حيث

قرأنا تعاويذنا وسِفْرَنا، وكتبنا مرايا للصدى يوم حدثتني عن أثينا ومدى ارتباطك بها كمنطلق جديد للنضال. . والراهبة التي كانت تحدثنا عن ساحرات دلفي ما زالت تصعد أمامنا. . ويدي بيدك وسط طريق غريب ووحيد.

ما زلت معي يا ميشيل حيثما رحلت، ووقفت رائحتك تنبعث من الأرض المعجونة بالدحنون، فتذكرني بدمك حين امتصه التراب يذكرني بالثأر. . ودروب مدينة فيرونا وقناطرها وحناياها التي تذكرني بحارات القدس، وأنا أصعد إليها ومن حولي السياح، كانت أشباحك تلاحقني. . أتخيلها تحيط بي. . تطاردني. . آه يا ميشو، وصعدنا على درجات دلفي حافيين لتباركنا «ربة الرفاه» تجمع بين رأسينا على وسادة واحدة، هل تذكر؟ كنا ما زلنا بعد في شهر العسل. . وارتديت ثوبي الأبيض. . ثوب حريري من يافا، وعلى رأسي جدلت جديلتين من أوراق زهر البرتقال، وعطرت جيدي برائحته سيكون عرسنا هناك، وسنجتمع على رغيف ساخن مثلما كان يجمعنا أبي.

كان المساء يأتينا بخير كبير، وكنت صغيرة أعيش وأسرتي في بيت على الشاطىء، حيث يستيقظ أبي في الصباح على صوت صافرات السفن تحمل إلينا البضائع مقايضة بحبات البرتقال الذهبية التي روتها شمس لا تعرف الوهن. . كان يذهب في

النهار بعيداً حيث تلسع أشعة الشمس وجهه وأرصفة الطريق تمد لسانها لتلعق أصابع قدميه من ثقوب الحذاء، وكنت وأمي نرقب المساء بانتظار رغيف ساخن وزيتون وحبات البرتقال. وكان يجر عربة حديدية يُحمّلها كل آماله ببيت جديد وأولاد يملأون الدار، وعندما تصل السفن وتطلق صافراتها كان يهرع كالمجنون إليها.. يحدق فيها وهي تعد بالرحيل إلى شواطىء وعوالم أخرى حيث الإنجليز الذين يأتون إلى هنا ببساطيرهم التي تخبط الأرصفة فتثير رعباً في نفسي فأهرب فزعة لأصادف وجلة رجلاً غريباً يعتمر طاقية سوداء، ويحمل آلة لتجليخ السكاكين.. كان يقف هناك متلصصاً يجمع السكاكين من النسوة، يدبب حدها حتى لأشعر بها تطوق عنقي وتركض خلفي في الأزقة تطاردني.. وكنت أهرع إلى البيت أبحث عن سرير أخي فأراه يغفو في السرير فأدفن رعبي في مساكب عينيه.

هأنذا أتحدث للسياح عن عراقة المدينة، وألَمّحُ لهم عن جمالها، بينما ألمح نسوة عجائز يدفعن عربات محملات بأوراق الشجر الصفراء يدفعنها أمام قسوة الخريف الذي يتابع ندف أوراقه الصفراء فتملأ العربات.. ها هي سائحة تتقدم بالكاميرا فتلتقط للعجوز صورة.. هكذا هم أينما ذهبوا يصورون العالم ثم يرحلون.. وأقرأ على الكاميرا (Israil) فيهبط قلبي.

في الصباح حين أتيت إلى مكتب عملي السياحي فوجئت بالمدير يأمرني أن أصحب المجموعة السياحية القادمة من إسرائيل بدلاً من زميلتي التي أصابها مرض مفاجىء.. وهتفت: لا. لكنه أصرَّ على ذلك مهدداً إياي بالطرد إن رفضت.

ـ أنتِ هنا في عمل ولا علاقة لعملك بأفكارك أو معتقداتك..

وفي نفسي تساءلت كيف سآخذهم ليجوبوا في الأرض.. من يدري قد يمتد أخطبوطهم إلى كل البلاد.. هل كُتب عليّ أن أكون دليلاً سياحياً لعدوي.. لا لن أفعل.. لكنني مضطرة.. حاولت التهرب بشتى الحجج عبثاً.

وضحك السياح ببلاهة عندما التقطت السائحة صورة للمرأة التي تدفع العربة.. وتناثرت الأوراق منها. كان أبي قد خرج كعادته يجر عربته، وكنت وأخي الصغير بالانتظار. توسمنا خيراً أمام الشائعات التي انطلقت من أن السفن محملة بخير كثير. وكان أبي وعشرات الرجال يحملونها على عرباتهم ينقلونها إلى مستودعات الإنجليز. كنت أسير على الرصيف حافية القدمين.. أتخيل العربة التي يجرها محملة بأزهار ذابلة.. ثم أسمعه ينادي:

ـ قرمزتي الجميلة، لماذا تسيرين حافية القدمين؟ وكنت أتمنى لو يحملني على عربته، لكن بقع الزيت عليها كانت تصدمني.

انسحبت الشمس من على الرصيف.. أخي الصغير في سريره تطل عليه شجرة العناب المزروعة في أرض دارنا، وزوج النوارس الذي حط الرحال عليها يزقزق للصغير.. يهدل له عند النوم وحين اليقظة، ثم يرحلا إلى البعيد فوق البحر يحرسان السفن ويعودان صائحين مستبشرين؛ جاء موسم التلاقح.. باضت أنثى السنونو وحضنت البيض في العش، وبتنا نرقبها بقلق حتى خيل إلينا بين لحظة وأخرى أن البيض سيفقس، وتهرع إلينا قبيلة من النوارس لتدخل الغرفة تضحك لأخي الصغير وتناغيه.. فجأة فقسَ البيض وخرجت مخلوقات غريبة سوداء، طيور جارحة ما إن فتحت عينيها لترى النور حتى صرخت «واق.. واق»، وخرجت أمي مسرعة لتجد بيض النورس مُلقىً على الأرض مكسوراً.. وفهمت الحكاية، لقد احتضن النورس بيضاً ليس له.. كانت طيور الوقواق تضعها في أعشاش غيرها من الطيور تهرباً وكسلاً من أمومتها.. حتى إذا فقس بيض الوقواق أطاح وعبث بكل البيوض الأصيلة وهشمها.. دخلت أمي بوجهها الحزين المكفهر، بينما صفق طير الوقواق بجناحيه، ونثر ما بتقى من البيض، وحين حدقنا في عينيه اكتشفنا أنه ما زال أعمى.

في المساء عادت النوارس حزينة لتجد طيراً أسود اللون غريباً قد احتل عشها، وألقى بالبيض إلى العراء.. ساد البيت حزن عميق وكأنه يبشر بشؤم قادم، وظل صوت الوقواق

يزعجني . . في الليل يطلق أصواتاً غريبة أبعد ما تكون عن صياص النوارس الجميلة .

ثم جاءت المفاجأة، سمعنا صوت انفجار هز أركان المدينة، وفاحت رائحة البارود والمفرقعات، وكانت عربة أبي بعدما انزلق أحد البراميل، واشتعل ليكشف أنه شحنة أسلحة وبارود .

في المساء عادوا إلينا بعربته فارغة، وساعة يده التي تطايرت إلى البعيد توقفت وكأنها تذكر بموعد قادم، وصار هو مجرد ذكرى ورمز لانفجار المدينة، وظلت أصوات العربات على الأرصفة ترعبني .

حين دخلنا المتحف القروي كان هنالك على بوابته تمثال للمسيح مصلوب، توجست خيفة، ودخلت بيوتاً خشبية هادئة يحاوطها سياج حميم . . تجولنا هنا وهناك . . من حولي السياح وأنا أردد لهم : هذا قنديل عتيق يذكر بقناديل بلادي، وقطع أشغال وتطريز لنسوة آمنات في البيوت، وهناك في بلدي قتلوا مئات النسوة . . ثمة مفارش وطاولات خشبية . تساءلت بيني وبين نفسي عن الخيط الرفيع الذي يربط بين نساء العالم كلهن : إنهن يحلمن بعيش هانىء وبيت دافىء حميم .

أمام أحد أسرّة الأطفال، توقفت وصرخت، ثم حاولت إخفاء

صراخي قائلة للسياح: إنها أسرّة للأطفال.

تطلع أحدهم إليّ كأنما يعنفني. يا للسذاجة.. نعلم إنها كذلك، قلت لهم: معكم عشر دقائق للتجول هنا بشكل حر، ثم انزويت حزينة.. وأمامي ظل سرير الطفل يتأرجح وبداخله جسد طفل تنزف من رقبته الدماء.. تذكرت حين كانت أمي تجلس في الركن وحيدة تحوك ثوبها، وأنا خلف الباب حيث مخبأي، ثم فجأة عم المساء صراخاً غامضاً، ودخل رجال مسلحون يحملون السكاكين ـ خلتها سكاكين المجلخ اليهودي ـ، هناك ذبحوا أخي الصغير في سريره، وطردوا أمي ولم ينتبهوا لوجودي.. آه الأسرّة تتحرك.. تخضب أرض العالم بدماء الأطفال، تهز ضمائرهم.. وحين خرجوا رأيت المجلخ بينهم يحمل سكينته، ونهضت من مكاني في المتحف.. قررت الهرب.. كان هنالك رساماً يرسم القرية الوادعة.. أمسكت الطلاء الأحمر لطخت اللوحة بالدهان وأنا أصرخ: آه يا سيدي، لا يوجد في العالم قرية هادئة.. كلها مخضبة بالدماء، وقفزت من على السياج مهرولة راكضة.. قبل أن أصير بعضاً من المتحف القروي، ثم مر قربي كلب بوليسي أفزعني.. ولحق بي البوليس تطلع بوجهي كنت ملطخة بالأحمر.. هل اكتشف المجزرة؟ وبدأت أهذي.. لا يا سيدي: أقسم لك أنني لست الفاعلة.. إنهم هناك من يعيثون في القرية فساداً.. أقسم لك أنني لمحت المجلخ نفسه بينهم

مع السياح اليهود وقد هَرِم. . ولعل مَن معه مجلخين آخرين. . وانتبهت إلى ثوبي الملطخ بالطلاء الأحمر. . ذكرني يوم عودتي وميشيل من دلفي، وحفل الاستقبال الذي أُقيم على شرفنا في فندق أثينا بالاس، وكنت أرتدي ثيابي البيضاء حين فجروا سيارته ولطخوا وجهي. . وصرت الأرملة الحزينة من يومها وأنا أعيش على أطلاله. . أرحل من مدينة لأخرى.

ظل الشرطي يتطلع إليّ وأنا أهذي بلغات غير مفهومة، ثم دلني على الماء لأغسل وجهي. . ودرت إلى السياح حزينة. . تفرست في وجوههم. . لا لم أكن مخطئة. . إنه الزعيم المجلخ وصحبه، لكن الكبر داهمهم. . عيون الطفلة لا تخطىء. . لو يفتحون عيون الأطفال ليروا مذبحة الرعب هناك مستوطِنةً في الأعماق. في الليل عدت وحيدة إلى غرفتي. . أمسكت ورقة وقلماً، وكتبت كل فظائعهم.

أبي مات وهو يحمل لهم السلاح مغبوناً ظاناً أنه خبز عياله، مجلخ السكاكين جلخها لذبح أطفال المدينة. . الوقواق طرد النوارس من أعشاشها مثلما فعلوا، واتجهنا للعراء. ميشيل كان فلسطينياً وقُتِلَ مثلي لنضاله. عيني ميشيل تحاصرني. . ساعة أبي. . وجه أخي وصراخه المغروس في الوسادة. . والطريق الطويل عبر الجسر إلى الضفة. . آه، لائحة الجرائم لا تنتهي.

غداً سيكـون آخر يوم لي معهم، سأوصلهم للمطار حيث طائـرة العـال بانتظارهم.. وقفت ألوح لهم.. حملوا حقائبهم وانطلقوا يرددون النشيد الأخير.

في المسـاء، ذهبت إلى البحر.. المساء صافي وحزين، وبين أثينـا وتل أبيب خمس ساعات من الرحيل، جلست على الشاطىء أرقب النوارس منذ زمن وفي نفسي حنين لمدينة آمنة، منذ زمن ونفسي تتوق لعربات محملة بالورود.. لكنني أراها.. قرنفلات مذبوحة تسيل من رقابها الدماء.

على الشاطىء غفوت.. شعرت بجسد ميشيل قربي بروحه تغلفني.. حرارة جسـده فيهـا دفء بلادي.. دفء أبي عطاء مدينـة.. لمحت أطيافـاً لأهلي ذكـرتني بالخـروج الأول من البـلاد.. رمـال الشـاطىء تلتمـع مثـل لآلىء.. غفوت على الشاطىء حتى الصباح.. أمواج البحر تحمل لي رائحة يافا.. في الأفق البعيد ألمـح طيوراً بيضاء مخضبة الرقاب بالأسود.. إنها أفواج النوارس تنبثق من الشفق الأحمر تزغرد.. تحلق.. تشق دربها عبر الفضاء.

على الشاطىء بائع الجرائد يصيح، يقترب مني.. اقترب أكثر وهو يصيح، انفجار طائرة العال الإسرائيلية وموت ركابها.. أتطلع للنوارس كل زوجين يتعانقان برقصة جميلة.. ألمح طيف

ميشيل من بين الغيوم يتطلع إليّ ويهتف: إنها تتضاجع من جديد لتعطي أفراخاً جديدة ترجع إلى أعشاشها حيث الشاطىء الجميل.. لا بد أنها ستطرد طيور الوقواق، ويعمر الشاطىء بأفراخها.

ميشو، أستحضرك الآن طيفاً في قلبي.. ميشو، سنلتقي، فأنت كل رجل في المدينة يحمل كلمة، وأنا كل امرأة تبحث عن طريق الخلاص.

لا لن تختلط النوارس بالوقواق.. ستكون نوارس جديدة تعود لشواطئها.. وتعرف دروبها حتى ذلك الحين.. ارقد يا ميشو.. ارقدْ بسلام، وارقد في لحدك هادئاً في مقبرة الغرباء الصامتة حيث الحشائش البرية تنبت بصمت على القبور.. أما أنا فسأضيء لك شموعاً، وأعد نفسي لنصعد تارة أخرى على أدراج دلفي نعيد عرسنا، وسيكون الشاهد هناك طيور النوارس الجديدة.

الممر الصعب

السفينـة عصفور جريح يتخبط بدمائه بحثاً عن مخرج عبر لجة الماء، عيون الناس جاحظة مرتقبة. . قائد السفينة ينتقل بها من مرفـأ لآخـر أمـام إصـرار المرافىء على صم آذانها وعدم استقبالنـا. . إذ من يستقبل سفينة العذاب؟ من يستقبل حاملة للمرض والجوع والتشرد ومئات الحكايا التي يحملها الناس في جُعبهم حتى تكاد تغرق السفينة.

جزيرة قبرص تظهر في البعيد مثل قطعة خبز شهية تعبر النهر أمام صبي جائع يحلم بها، بيروت آخر حلم أضاء ثم انطفأ. . مدينة من العذاب ناشرة شعرها بقلق، ملفعة بالحزن أمام اجتثاث ثدييها واختلاط الدم الأحمر بالحليب ليروي أطفالاً بلا حلوق بعدما فجرها الحرب. . ومئات الأسئلة معلقة في الهواء. . قائد السفينة يتصبب عرقاً. . أنا أتجول بين مئات صناديق البضاعة، أحاول استلهام لحظة إشراق واحدة في وجوه الركاب، بينما أرسم على وجهي ابتسامة بلهاء مصطنعة اعتدت أن أرسمها في حياتي أثناء عملي كمضيفة بحرية. . قبل أيام نجونا بأعجوبة من عذاب الاحتضار. . وآخر خيوط تصلني بوطني قطعتها واحدة فأخرى،

أم تراها تلاشت دون علمي . . إذ مَن يجرؤ على قطع شرايينه، وأنا التي عشقت بيروت . يوم دخلتها حملت عذابي إلى شاطئها، وجلست مثل أميرة وحيدة جاء الموج يواسيني، يلعق جرحي . . وكنت أظن أن الأمواج تتراجع حاملة شحنات من عذابي ناشرة إياها على الكون أجمع . لكن الأمواج تبتلع الأشياء . . والبحر سيد الصمت . . منذ زمن غادر أبي أرضه يحمل خمسة أطفال وابنته الوحيدة، ويمشي برجل واحدة هي آخر ما بقي له من الدنيا، ثم أتى إلى جنوب لبنان واستوطن وعمل مزارعاً في أرض فهمي بيك . . تعهدها يزرعها، ويصلي للسماء أن تمطرها، كان يحمل حفنات التراب بين يديه يداعبها . . يقبلها مردداً: إنها تذكرني برائحة يافا . . شاطىء بيروت يشبه شاطىء يافا . . وحتى عندما فقد أطفاله أصر على دفنهم في المزرعة . وكنا في موسم العنب نسمع نحيباً غامضاً أشبه ما يكون بعواء إنساني محتبس، ومن بين أوراق الدالية كانت تظهر عيون أطفال قلقة تبرق مثل الشرار، بينما يجلس أبي مرهفاً، ثم يجهش في البكاء . . كم كان فلاحاً أصيلاً طيباً . . وعندما وقف الناس يبيعون أغراضهم من أجل الرحيل إلى أميركا بحثاً عن وطن جديد وثروة حالمة، تعلق بالأرض . حتى كان الاجتياح الإسرائيلي الأخير، حيث مروا بالمزرعة . . هدموا الكوخ الخشبي . . وعاثوا بها فساداً، ثم خرج لا يحمل معه سوى مفتاحاً خشبياً عبثاً حاول أن يجد باباً يقفله

به . . وظل يهذي بيافا والمزرعة . . وحمل المفتاح مثل صليب يغمسه بكؤوس الناس علّهم يصحون لما جرى! ولما عملت مضيفة حمّلني إياه كتعويذة، وكان مثل عقرب ينام في صدري فيلسعني، وفي أوقات العسر أداعب إيقونتي، لكن ما جدوى التوسل بكل إيقونات العالم وبكل الآلهة أمام رصاصة طائشة تمزق صدر الناس بشكل عابر.

الوجوه التي أمامي معبأة بصراخ تخنقه العيون، سيدة تتصبب عرقاً، بطنها مكور أمامها، حاولت الخروج والتدافع مع المندفعين. في الأيام العادية لم نكن نسمح أبداً بركوب السفن للنساء الحوامل. أما الآن فالسفينة مجرد دفة خشب يتعلق بها البشر طلباً للنجاة من مدينة محترقة تفتح فمها كتنين وحشي لا يرحم، والموت الذي يسير فيها مقتنصاً كل آدمي.

كان من عادتي أن أرقب المسافرين أثناء صعودهم إلى دفة السفينة ما بين نساء معطرات يرتدين أجمل الأزياء، ورجال أعمال يحملون الحقائب. . وأطفال يحملون دماهم. أما الآن فالوضع مختلف تماماً. . فالناس أشبه ما يكونون بهياكل بشرية. . نساء ناشرات شعورهن، والبعض بلا أحذية. . عجلات متحركة تحمل عدداً كبيراً من المسافرين. قمصان ممزقة. . وجوهٌ مرعبة حتى خلت نفسي أمام مشهد رعب من أفلام

السينما، ثمة امرأة تحمل دمية محشوة بالقماش تعانقها وهي تصر على إنها ابنتها التي ماتت تحت الأنقاض، ولما حاول أن يجادلها موظف الجوازات صرخت بوجهه قائلة: لقد سئمت أن أكون أمّاً لأطفال من لحم ودم يتساقطون بلحظة برصاصة طائشة، أمّا هذه الدمية يا سيدي فقد مزقتها مئات الرصاصات الطائشة ولم تمت، ثم إنها لا تجوع فلا تطالبني بالخبز المتعفن في لحظة الشدة، ولا تبكي أو تتأثر. . إنها تليق بهذا العصر يا سيدي. . عصر الرعب والقسوة.

وأسرع زوجها يسحبها ويسكت هذيانها أمام عويل بقية النساء، وتنهد الرجال، وانطلقت السفينة تبحر وتبحر. . صوت عويلها ينشج على صفحات الماء. يمزق شرايين رأسي. . طفلة بين يدي أمها تهدهدها وتتحايل على جوعها، والسفينة خاوية بلا خبز أو طعام، براميل الزيت التي نحشر أنفسنا بينها تسيل قطرة فقطرة، وثمة طفل هرّب في يده كسرة خبز يابسة يتطلع إليها بقية الأطفال في حسد، لعله التقطها من على رصيف الميناء ثم غمسها بقطرات الزيت وعاد يبصقها.

الفئران ترتع هنا وهناك تتطلع بوقاحة إلينا، تخرج بلا مبالاة، تلعق دفة الخشب وتهرب. في السفينة رجل محتضر بوجه أصفر، يتحلقون من حوله، يحاول الحديث ثم يصمت وكأن البحر قد

التهم منـه كل الكلام، ويحرك فمه مثل أمواجٍ صامتة تقفز ثم تتلاشى، بينما وقف كابتن السفينة يتطلع إلينا وكأنه يستوضحنا: هل سنلقي بالرجل إلى البحر بعد موته؟ تخيلت الأسماك كيف ستقترب منه وتنهش صدره (مثل الناس) ثم تترك بقعة دماء حمراء تُعلن للسمك المتوحش أن فريسة أخرى قد حلت بالبحر. أثناء صراعـه مع الموت أمسك بيده شيئاً كان يخفيه تحت وسادته، وظننـا أنها مدخراته في الحياة، لنكتشف أنه مجرد (مسطرين) لوّحه أمامنا ثم هتف: بهذا المسطرين بنيت المدينة حين كنت عامل باطون، حتى إذا أضناني الجوع، واستولت الحرب على المدينة، وساد الدمار، تحولت إلى حفر القبور.. قبور جماعية، إذ بمقدار ابتعاد الناس عن بعضهم في الحياة عادوا للالتصاق والالتحام في قبور جماعية دون أن يحتج أحدهم. ثم تطلع في وجه الكابتن وقال بصوت متقطع: اسمع يا سيدي، هذه سخرية القدر، هذا هو مسطريني بنيتُ به بيوتاً للناس، وهدموا داري، وبنيتُ قبوراً وعجزت عن إيجاد قبر لي، لا تتردد في إلقاء جثتي إلى البحر، وتقطعت أنفاسه ثم دخل في غيبوبة صامتة.

من بعيد سمعنا صراخاً من على ظهر السفينة.. وكانت امرأة تصرخ بصوت عالٍ وتستنجد طلباً للقمة خبز أمام جوع طفلتها التي لم تجد مخرجاً لها إلّا بإعطائها حبة منوم خلاصاً من نواح بطنهـا، وتخدرت الطفلة للأبد.. آه دوماً يخدرون جراحنا..

حتى البحر يحاول تخديرنا بزرقته ودواره، إذ منذ أيام والبحر يحاوطنا مثل مصير غامض. . ننام على سواده ونصحو على زرقته. حين اقترب الكابتن من المرفأ الأول هلل الركاب واستبشروا بأن المرافيء ستحضننا أخيراً بالرغم من الغربة الغامضة التي تفغر فاها أمامنا.

توقفت السفينة بعيداً عن الشاطىء بعد تشويش الرادار. . اقترب مركب حرس الحدود منها. . تجمدت العيون. . صعد الضابط الكبير إلى السفينة. . حاور الكابتن، فهمنا أنهم يرفضون قبولنا، ويمنعونا حتى من الاقتراب من الشاطىء.

ـ أنتم على متن سفينة شحن ولا يسمح لكم بالدخول. قال الضابط.

ـ وهتفنا بصوت واحد: لكن يا سيدي أتينا من مدينة حلّ بها الدمار، لم يعد لأهلها من مكان. . الشوارع ممتلئة بجثث منتفخة، الدم على الجدران يكتب أحرفاً، وملحمات غامضة. الخبز صار رفاهية غير موجودة. . على الأقل دعونا نتزود بالطعام. معنا أطفال جياع. رجل محتضر.

ـ ممنوع.

كدت أصرخ بوجه الكابتن قائلة: توقف يا سيدي. من تطرده مدينته هل تقبل به المدن الأخرى؟ ومِنْ بعيد ظهر الميناء، وتخيلت مئات العراة على الشاطىء يستحمون.

ثم تابعت السفينة وسط حسرات المسافرين وآهاتهم، ووسط ليل وذُلّ كبيرين.

عجيبة هي مفارقات الحياة قضينا أيّاماً في بيروت والحريق يلتهمنا ولم نجد قطرة ماء تطفىء الظمأ قبل الحريق.. والآن لا حفنة تراب تكون مرفأً لنا؟!

في المساء أتى من يعلم الكابتن بأن الرجل المحتضر قد قضى نحبه.. وعمت الكآبة أنحاء السفينة، ثم تجمع الرجال حول دفتها مثل النوارس، صلوا على الميت بخشوع مهيب.. على أضواء القناديل الشاحبة، ثم ألقوا بجثته إلى الماء، وخيل لي أن يده تلوّح لنا.. انشق البحر وابتلعه، وبقيت أمواج متلاشية. تساءلت في نفسي: هل ألقوا معه بالمسطرين؟ مرت دقائق من الصمت كانت تترقرق في عيون الركاب دمعة محتبسة.. والوجوه تتطلع إلى بعضها وكأن لسان حالنا يردد: هذا مصير كل واحد منا لاسيما إن رفضتنا شواطىء العالم، ثم سيخرج بلاغ يعلن أن سفينة العبور قد حملت من كل زوجين اثنين، وتاهت في البحر ملقية حمولتها قرباناً لآلهة البحر.

فجأة قفز شيء ما من البحر.. ظننا أن جثته قد لحقت بنا، وصرخنا برعب، أتراه يلحق بنا؟ لعله وجد جزيرة في الأعماق آمنة قبلت بأن تستقبلنا.. وكدت أهتف بالميت [اسمع يا سيدي، إن

وصلت معشـر السمك والتفت الأسماك حولك، قل لهم بأنك رسول من البر أتيت تهديهم، أوصهم بألّا يأكل السمك الكبير الصغير، وحـذرهم من الضغينـة والحقد.. قل لهم إن اليابسة تنعم بمدن عامرة جميلة.. وإن سألوك عن صوت الانفجارات التي يسمعونها، أخبرهم بأنها مدافع العيد، والنيران المشتعلة في السماء سهام مضيئة وألعاب نارية لأطفالنا.. وأن التفجيرات التي نجريها في البحر ما هي إلّا عقاباً لكم منذ سمعنا بمخططاتكم المـائية في التآمر على بعض، لذلك قررنا تفجير شحنات في رؤوسكم حتى يحل بينكم الوئام]، واستيقظت من هذياني على صوت مسافر يصرخ: إنه سمك القرش يطاردنا.. وبدأ الجميع بالصـلاة والدعاء.. صلاة حارة غامضة.. صلاة سكان جزيرة يوشك الزلزال أن يطيح بها.

حاول القبـطان أن يغير وجهـة السفينة، لكن القرش قفز، وتـطلع إلينا بشراسة، لعله يحتج على إلقاء كائن من بيننا، أو يحتـج على المسـطرين الذي بيده، لكنه لن يحفر قبوركم.. أقسم لك.. فنحن هنا منشغلين بقبور اليابسة.. بدمارها.. وقد لا يبقى بها متسع للقبور.. إذ نحن هنا مسحوقون، وحتى إشعار آخر.. لا صرخة لنا.. لا صوت.. مئات الأصوات منسقة تحت الأقدام.

في إحدى سفراتي، كنت على شاطىء بحيرة لوجانو في سويسرا، صعدت إلى سفينة سياحية حملت من كل جنسيات العالم، كانت تطوف بنا عبر البحيرة، حيث تتراقص أضواء المدينة على صفحات الماء، وكانت امرأة عجوز تغني وسط الهرج والرقص.. شاركت قليلاً ثم انسحبت من بين المجموعة، وظل صوت المطربة يردد eveva Ispania (تعيش إسبانيا)، ثم ابتدأ أفواج السياح كلٌ يغني لبلده.. إلاّ العرب.. وارتفع نواح وحشرجة من خلف السفينة جذبني إليه لأكتشف رجلاً يبكي، حدثني عن غربته في سويسرا.. حيث جنة الله في الأرض، قال: مَن تلفظه مدينته يبقى مثل حبل عائم بلا مرفأ.

جلسنا صامتين، نتطلع إلى الوجوه بحسرة، ثم توقفت السفينة، ونزلنا إلى الشاطىء.. سرت ألملم شتات نفسي.. مدينة لوجانو تصخب بليلها.. إنها الثانية ليلاً.. أرض المدينة تتلون بالأسود والأبيض حيث مساحات الشطرنج، والسياح يلعبون بحجارة كبيرة على شوارعها.. تذكرت أحجار الشطرنج في بلادي.. ثمة من يلهو بها، بحيث يضيع الوطن والمواطن.. استجمعت شجاعتي، بحثت عن رفاقي من العرب وبدأت أغني eveva Bairut (تعيش بيروت). غنينا لحاراتها العتيقة.. للدم العربي.. لأول مرة ينتبه السياح الأجانب لنا.. ثمة من استيقظ وشاركنا الغناء.. وفتحت النوافذ تطل منها الوجوه إلينا..

سمعنا أصواتاً تردد معنا . . غناؤنا حرك الأشجان، وسألونا: من أين أنتم؟ قلنا: من مدينة الشمس والحب والفرح . . لكن الليل اغتالها .

ثمة يد هزتني، أيقظتني من أحلامي . . كانت يد الكابتن تشدني، وسألته:

ـ هل هو سمك القرش تارة أخرى؟

ـ لا . . يبدو أنه انصرف . .

ـ إذن، ماذا هناك؟

ـ امرأة في حالة مخاض . .

ـ ماذا تعني؟

ـ لا وقت للجدل، عليك بها . . وأسرعت إلى غرفتها، كانت تتصبب عرقاً وهي جالسة تنظر برعب . . استجمع كل معلوماتي التي عرفتها أثناء عملي عن الولادة، ورحت أساعدها، بينما كان الكابتن يحاول الاتصال بالشواطىء يخبرهم أن هناك ماخض معنا .

أحاول مساعدتها . . ينفرج فخذاها . . دماء حمراء تنهمر كشلال تتدفق في وجهي . . في الخارج صلوات ودعاء . . يسرع الرجال إلى الكابتن . . دعنا نتصل بالشواطىء واحداً فآخر . . دع المرأة تصرخ . . وتصرخ .

الولّادة تشد شعرها، تتصبب عرقاً، أسمع صوت الرجال

يأتيني مع نفثات الريح: لا نبحث عن وطن بديل، بل معبر للنجاة، مجرد مكان مؤقت.. نحن محاصرين بين سمك القرش الجائع والبحر الهائج والجوع الذي يعضنا.. الأصوات تختلط.. أسمع الكابتن يتحدث بود وهو يتنفس الصعداء، ثم يهتف: لقد سمحوا لنا أخيراً بالنزول على شواطىء جزيرة خضراء.

صوت الماخض يزعق: هل أنا عقيم؟ ما هذه الدماء المسفوحة مني دون جنين؟ أقول لها صبراً، ويطل الرأس، رأس جنين زغبه.. مخلوق قادم جديد.. يندفع ببطء إلى الحياة عارياً، يطلق صرختـه.. أربط حبل السرة.. إنها عقدة المصالحة مع الحياة.. ألفه بخرقة بيضاء وأهرول به إلى الكابتن، بينما يعلو صراخ الوليد حتى يوقظ طفلة الجوع المخدرة.. الكابتن يعبر بالسفينة عبر ممر هادىء.. يلوح الشاطىء لنا.. سمك القرش يدير رأسه ويولي فزعاً أمام اتحادنا.. الوجوه تتعانق.. السفينة تعبر عبر ممر مرجاني أبيض إلى حيث مدينة جديدة.. الأيدي تصفق فرحاً.. تهتز السفينة.. تتهادى في مشيتها عبر ممر مؤقت إلى حيث أرض واسعة هي اتصال لمدينتنا بيروت.

الفهرس

الإهداء ٥
الطائر الأحمر ٧
البشاعة ٢٣
الكسندرا ٣٤
امرأة من ورق ٤٥
المرفأ الأبيض ٥٥
الشقة المفقودة ٦٤
الرغيف ٧١
القناع ٧٧
ضجعة النورس ٩١
الممر الصعب ١٠١
الفهرس ١١٢